ثلاث سنوات

أنطون تشيكوف

روايات الهلال





الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكر الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر فبراير 2020 **
www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العــــدد ٢١٥ * نوفمبر ١٩٦٦ * شعبان ١٣٨٦

No. 215 — Novembre 1966

بيانات ادارية

ثمن العدد: فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان ٨٠ مليما — عن الكميات المرسلة بالطائرة : فى سوريا ولبنان ١٠٠ قرش سورى لبنانى — فى الاردن والعراق ١٠٠ فلس

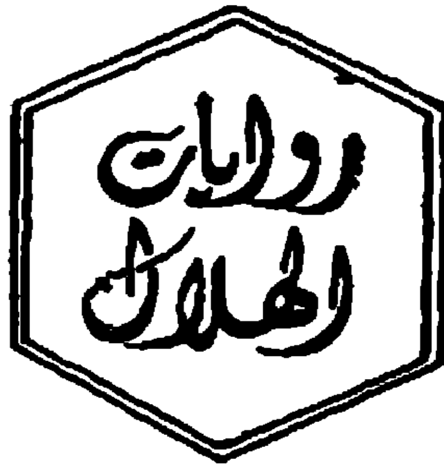
قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة ٨٥ قرشا صاغا — فى السودان ٨٥ قرشا سودانيا — فى سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا لبنانيا — فى بلاد اتحاد البريد العربى ١١٠ قروش — فى الامريكتين ٥ دولارات — فى سائر أنحاء العالم ٣٠ شلنا

والاشتراكات تسدد لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية — وفى الخارج بتحويل مصرفى قابل للصرف فى القاهرة

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين : ٢٦ آنة ، عدن : ٢٣٠ سنتا ، السودان : ٩٠ مليما ، ليبيا : بنغازى ، طرابلس ١٢٠ مليما ، الجزائر : ١٥٠ فرنكا ، المغرب : ١٥٠ فرنكا

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب — القاهرة

تليفون ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »



مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

ثلاث سنوات

بقلم

أنطون تشيكوف



دار الهلال

المؤلف

● ولد أنطون بافلوفيتش تشيخوف فى ١٧ يناير سنة ١٨٦٠ ، وكان جده من رقيق الأرض ، وصفه تشيخوف بقوله :

« كان جدى يتلقى ضربات سياط السادة من النبلاء ، وكان أصغر موظف فى الضيعة يستطيع تحطيم راسه ، ومع ذلك كان يقسو فى جلد والدنا ، وكان والدنا ، يقسو فى جلدنا » .

وقرب نهاية هذه الرواية (ص ١٢٢) سنسمع بطلها يصف جده ووالده بنفس الكلمات تقريبا .

● أمضى تشيخوف طفولة تعسة ، ولم يكد يقترب من سن الشباب حتى وجد نفسه مسئولا عن اعالة الأسرة كلها ، فضلا عن دفع مصاريف دراسته للطب ، فارهق نفسه فى اعطاء الدروس الخصوصية والتاليف .

● أتاح له عمله بالمستشفيات فرصة الاتصال المباشر بالفلاحين مما وضح أثره فى كتاباته ، وفى اهتمامه باصلاح احوالهم التعسة .

● قام عام ١٨٩٠ برحلة شاقة الى جزيرة « سخالين » ، حيث درس أحوال المسجونين على الطبيعة وكتب عنهم بحثا ضخما احدث ضجة كبيرة .

● كتب اربع مسرحيات وعدة روايات ، ولكنه يعتبر رائد مدرسة أصيلة فى فن القصة القصيرة ، اذ وجهها الى تصوير موقف داخلى من الحياة دون اهتمام كبير بالحبكة على العكس من مدرسة « موباسان » الفرنسى .

● توفى فى ١٥ يوليو سنة ١٩٠٤ .

مقدمة

تعتبر رواية « ثلاث سنوات » لتشيخوف نموذجا مصغرا من رواية « أسرة بادنبروك » للكاتب الالمانى توماس مان ، وان كانت قد كتبت قبلها بستة عشر عاما ، وقبل الجزء الأول من رواية « أسرة فورسايت » للكاتب الانجليزى جون جالزورثى باحدى عشرة سنة .
ففى قصة « ثلاث سنوات » التى لا تزيد على مائة وثلاثين صفحة ، قدم لنا تشيخوف باسلوبه المركز الشبيه بالحكم الابيجرامية ، الاحساس بحتمية الاختلاف بين الاجيال المتعاقبة ، وهو نفس الاحساس الذى عالجه كل من توماس مان وجالزورثى فى حجم اكبر بكثير .

وتركز قصة تشيخوف حول زواج « لابتيف » ، الابن الاصغر لأحد التجار الأثرياء ، بابنة طبيب باحدى المدن الصغيرة . وموضوع قصة الحب شبيه بموضوع « افجينى أونجين » للشاعر الروسى الكساندر بوشكين ، مع قلب الأدوار ــ فالرجل فى « ثلاث سنوات » هو الذى يحب بشغف فى البداية ، والمرأة عند النهاية ، ولكن الصورة التى يرسمها تشيخوف لثلاث سنوات من زواجهما تتطلع الى الأمام والى الوراء ، فترينا من اين جاءا ، وماذا سيصبحان فى الأيام القادمة ، هما ومن يحيط بهما فى بيئة موسكو ، فضلا عن بيئة المدينة الاقليمية .

والحذق الرائع الذى كتبت به هذه الرواية البارعة جدير بالدراسة والمقارنة بروايتى توماس مان وجالزورثى للتعرف على الاختلافات

القومية والفنية بين هؤلاء الكتاب الثلاثة ..

فتشيخوف ، مثل توماس مان ، يرى أن هناك عملية تدهور في حياة الأسرة التجارية ، وثمة أوجه شبه واضحة بين الكاتبين مرجعها الى « جو الآراء السائدة » في العصر ، والى نماذجهما المشتركة من بين مؤلفات الطبيعيين الفرنسيين ، وبصفة خاصة اصرارهم على قوة العامل الوراثى ، ثم موقفهما الشاك المتسائل من البورجوازية . والمؤلفان بعد ذلك خاليان من روح المجاملة الموافقة لروح العصر ، تلك التى وجد تشيخوف مثلاً عليها في رواية « اسرة بولونتسكى » لسينكيفكز ، وقد قراها حوالي عام ١٨٩٥ ، ووصفها بقوله :

« .. انها فطيرة بولندية بالجبن والزعفران مما يقدم فى عيد الفصح .. لقد استلهمت من رواية بورجيه : « مدينة عالمية » ومن روما ، ومن الزواج .. وهدف الرواية هو هدهدة البورجوازية لتستغرق فى النوم برفقة احلامها الذهبية . لتخلص لزوجتك ، ولتصل معها فوق كتاب الصلوات ، ولتكسب مالا ، ولتحب الرياضة، وسيكون كل شيء على ما يرام معك في هذا العالم والعالم الآخر . ان البورجوازية شديدة الهيام بما يسمى بالنماذج الايجابية ، والروايات ذات النهايات السعيدة طالما كانت تنافقها بفكرة انه من الممكن أن يكدس الانسان المال ويحتفظ فى الوقت نفسه ببراءته ، اى يكون وحشا وسعيدا في ذات الوقت » .

من الواضح ان تشيخوف لم يكن يحب البورجوازية ، ولكنه يفسر انهيار هذه الأسرة التجارية بذاتية اقل من توماس مان ، بل لعله فعل ذلك برؤية اجتماعية أعمق . فالمؤلف الالماني لا يستطيع ابدا أن يبتعد عن مشكلة الفنان ، فهو فى نظره نموذج للنتاج المتأخر ، الذى نضج اكثر مما ينبغى ، ونضجه غير سليم من الناحية البيولوجية اذا ماقورن بالبورجوازى الطبيعى ، وعلى

ذلك فهو يجعل أسرته التجارية « تنهار » وتتحول الى فنانين ، ثم تغنى فى النهاية . اما أسرة « لابتيف » التى يقدمها تشيخوف فلها تاريخ مختلف . فالرجل العجوز لا يختلف عن نمط رجال الأعمال الذين يردون فى الأدب البروتستانتى ، فهم راضون عن تصرفاتهم بأسلوب معوج ، وشخصياتهم مهما بدت ظاهرة التدين ، فهى تتكامل عادة حول غريزة تأكيد الذات . ولابتيف العجوز طاغية فى أسرته ، واله صغير فى نظر نفسه ، متعته الوحيدة فى الحياة ممارسة القوة والسيطرة . وهو لا يتميز بقدرة خاصة ، ولكنه فى صباه ، وفقا لما يقوله ابنه ، اتيحت له فرصة بداية معينة ، والتاجر يستطيع أن يكون ثروة كبيرة بطريقة تكاد تكون آلية ، « فالنقود تأتيه وحدها » . وهى فى هذه الحالة لا تقل عن ستة ملايين روبل ، كلها من أرباح تجارة الجملة فى الاقمشة والأشرطة والأزرار ونحو ذلك .

ان لابتيف العجوز لا يغادر متجره ابدا ، لا لشىء الا لانه يستمتع باصدار الأوامر لمساعديه من حوله والسخرية بالزبائن ، « وهو رئيس شرف فى الكنيسة لانه يستطيع ان يتحكم فى افراد الجوقة ويجعلهم يجثون على ركبهم أمامه » — بل انه ليقف فى الكنيسة وينقد القس على مشهد من الجميع لأنه لم يؤد كل طقس من الطقوس وفقا لمشيئته ، وهو كذلك وصى على احدى المدارس لسبب مشابه . ان ما يحبه التاجر الثرى ليس التجـــارة بل ممارسة النفوذ ، « ومتجركم ليس مؤسسة اقتصادية ولكنه حجرة تعذيب » .

وحين يعود لابتيف الشاب ، بعد غيبة استمرت بضعة اشهر ، يرى الصبية يجلدون ويلكمون فى أنوفهم كما كان يحدث له وهو غلام . وحين يكبرون ، كما يقول ، سيصنعون الشىء نفسه مع من يصغرونهم . ان العمال الخمسين يستغلون بلا رحمة ، ويعيشون فى ظروف بادية السوء بصورة غريبة ، حتى لقد اصبحوا حديث السوق

كنها . فهم يسكنون في قبو – او « بدروم » – بيت السيد ، مكدسين كل ثلاثة او اربعة فى حجرة ، وياكلون من طبق واحد ، رغم ان لكل منهم طبقه الخاص به ، وذلك لانهم تنطبق عليهم القاعدة القائلة بان الحريات المسموح بها نظريا قل ان تجد من يجرؤ على ممارستها ، بل هى لا تجد مثل هذا الشخص ابدا . فهم مثلا ، لايتزوجون ، وقلما يخرجون فى المساء ، لأنهم يجب أن يعودوا قبل حلول الساعة التاسعة ، ويعلمون ان السيد العجوز سيلاحظ فى الصباح التالى ان كانت رائحة « الفودكا » تفوح منهم او لا . انهم اذلاء الى درجة الخنوع والنفاق ، ولذلك ففى كل منهم بذرة طاغية مستبد متى أتيحت له الفرصة .

وما يهاجمه تشيخوف فى هذه الرواية هو تلك التقاليد القبلية العتيقة التى تتيح لرب الأسرة ان يمارس سلطانه بلا حدود وباسلوب خال من الانسانية . واذا كان رب الأسرة هنا فى بيئة تجارية ، فقد سبق لتشيخوف ان قدم فى قصص اخرى نماذج لرب الأسرة المتجمعة فى البيئة الريفية ، وهو فى الحالين ، مثل نموذجى صارخ على ان السلطة غير المحدودة تنتهى دائما الى الفساد .

وابناء الجيل الحاضر من اسرة لابتيف لم يتصرفوا بسبب ازدياد انتشار الاحساس بالحرية فى العالم بشكل عام ، كاسلافهم ، فهم يعلمون ان ملاك الأرض كانوا يجلدون جدهم ، وان جدهم بدوره كان يجلد اباهم ، ولكنهم هم انفسهم لم يستطيعوا ان يحتملوا وقع السياط بسعادة وهم متأكدون ان دورهم آت ليجلدوا ابناءهم واتباعهم ، بل سمم الخوف حياتهم . لقد حملتهم أمهم وهى خائفة . كانت فى السابعة عشرة حين زوجوها رجلا فى الخامسة والاربعين ، فكانت ترتعد لكل التفاتة من راسه . وكان السوط هو معلم هؤلاء الابناء ، وملأهم السام من صلوات الاسر والكنيسة ، وبداوا يعملون

فى المتجر منذ سن الثامنة ، وحتى حين التحقوا بالمدارس الثانوية ظلوا يعملون فيه نصف اليوم .

ولا شك ان تشيخوف قد عانى جانبا من هذه التجربة ، وكانت النتيجة — كما يقول لابتيف — القضاء على الرغبة فى الحياة فى نفسه ، فقد كان يعانى ، كما نستطيع ان نقول الآن ، احساسا بالنقص ، حتى فى مواجهة البوابين ورجال الشرطة . اما شقيقه ، فحين تفشل محاولاته غير الواعية لاخفاء تعاسته خلف قناع من الزهد فى المظاهر الاجتماعية ، فانه يتحول الى حطام منهار الاعصاب ، ويتمنى لابتيف لو أن « اسرتهم التجارية المرموقة تنتهى بوفاتها » .

وحينما كان لابتيف لا يزال طالبا فى الجامعة شجعه صديق له على القيام بمحاولة للاستقلال ، فاستاجر مسكنا خاصا به ، وقلل نصيبه فى العمل بالمتجر الى أقل حد ممكن ، وان ظل يتقاضى منه الفين وخمسمائة روبل فى الشهر . وظل حتى بلغ الرابعة والثلاثين من عمره يعيش فى موسكو حياة اعزب مرح مع اصدقاء أذكياء وعشيقة ، وسط بيئة ذات ميول فنية واهتمامات موسيقية ووجهة نظر فردية شأن طبقة المثقفين ، رغم ان دخله الكبير كان يسمح له أن يكون كريما فى عطاياه .

لم يكن له دين ولا هدف معين فى الحياة ، يعيش متنقلا من نزوة الى أخرى ، وقد سيطر عليه خوف غامض غريب . وها هو ذا يحب الآن بعنف ، ولكن علاقته بـ « جوليا » كانت مسممة منذ البداية بفكرة ترجع الى حد كبير الى انعدام ثقته بنفسه ، وخلاصتها انها لم تقبل الزواج منه الاطمعا فى ماله ، مع ان حقيقة الامر انها تزوجته لتتخلص من ابيها وتعيش فى موسكو . وحينما بدات تحبه فعلا بعد مرور ثلاث سنوات ، كان حبه لها قد مات ، وهناك اشارة الى ان مثلث

الكبت المألوف في طريقه الى التكوين ، بالاشتراك مع اقرب اصدقائه ـ « بارتسيف » ـ الذى يحب جوليا .

وفي هذه الأثناء كان لابتيف قد أصبح رئيس المؤسسة التجارية ، ووجد نفسه سجين الثروة التي يمكنها ان تهبه الحرية . « كان مقتنعا بأن الملايين والعمل ، اللذين لا يكن لهما اقل حب ، سوف يفسدان حياته ، ويصنعان منه عبدا مرة أخرى ، والى الأبد . واخذ يتصور كيف سيألف مكانته بالتدريج ، وكيف سيتقمص شيئا فشيئا دور مدير المؤسسة ، ويجد كل ما فيه من حساسية يتبلد ، وتتقدم به السن ، ثم في النهاية يموت حقيرا ميتة النكرة الوضيعة المريرة ، بعد أن ظل سنوات عذابا لكل من حوله » .

ومع ذلك فبوسعه أن يقوم بمحاولة للفرار . « وكان منزعجا من نفسه ومن هذا الكلب الأسود المستلقي فوق الأحجار عند قدميه ، لأنه لم يجر هاربا الى الحقول والغابات ، حيث يستطيع ان يكون حرا وسعيدا . وكان من الواضح ان الشيء نفسه هو الذى يمنعهما هما الاثنان من مغادرة الفناء ، قوة العادة لا اكثر ، هي التي تجعلهما يهادنان الأسر ، ويقبلان حياة العبيد » .

ما السبب الكامن وراء ذلك الاحساس بالكبت الذى نجده في كل مكان عند تشيخوف ؟

هل هو ، من وجهة نظره ، شيء تمنحه مع الحياة نفسها ، شيء ميتافيزيقي ، أو انه نتيجة لسوء التوافق الاجتماعي ، فيمكن في هذه الحالة تغييره بقدر كاف من جهد الارادة ؟ . .

من الواضح ان السبب في هذا الكبت قوة تؤدى دورها ، على اقل تقدير ، خلال ظروف اجتماعية معينة ، وقد استطاع في هذه الرواية أن يرسمها بوضوح بالنسبة لطبقة التجار .

والرواية باعتبارها صورة للسلوك الانساني مقنعة وتفيض

بالحيوية ، كما أنها تقدم كثيرا من خصائص تلك الطبقة التي كانت آخذة في الانقراض وقت كتابة الرواية ، وكانت بعض ملامحها الخارجية قد زالت ، او في طريقها للزوال من موسكو في ذلك الوقت ، كالملابس مثلا ، ولكننا نلحظ في الرواية مع ذلك تلك الآداب المراعاة في طقوس الكنيسة ، والتهكمات والتلميحات وبعض التعبيرات الخاصة ، وآداب السلوك المتأنق - وبصفة خاصة في ذلك الاستقبال الوقور لعروس الابن في بيت الأسرة في احتفال ديني متقن - ثم عدم وجود دفاتر حسابات في المتجر ، وبالتالي عدم وجود الادارة الموضوعية التي تعتمد على العقلانية الصارمة على النحو المألوف في المؤسسات التجارية الغربية التي في مثل هذا الحجم .

عن كتاب « روسيا ل ادب تشيخوف »
تأليف : و . هـ . برافورد

— ١ —

كان الظلام لا يزال مخيما ، باستثناء بعض الأضواء المنبعثة من النوافذ هنا وهناك ، ومن القمر الشاحب وهو يرتفع هناك بعيدا خلف الثكنات عند نهاية الشارع . جلس لابتيف على مقعد خشبى امام بيته ، ينتظر انتهاء صلوات المساء في كنيسة « بطرس وبولس » . بعد قليل ستمر « يوليا سيرجيفنا » فى طريق عودتها من الكنيسة الى بيتها ، وسوف يتحدث اليها ، وقد يمضى المساء كله معها ..

ظل ينتظر اكثر من ساعة ، وعادت به افكاره الى مسكنه فى موسكو ، واصدقائه هناك ، وخادمه « بيوتر » ، والمكتب في حجرة مكتبه . وأخذ يحدق فى الأشجار الداكنة الساكنة ، وبدا له غريبا انه بدلا من أن يستاجر منزلا ريفيا فى « سوكولنيكى » يعيش فى هذه المدينة الاقليمية الصغيرة ، حيث تثير قطعان الماشية سحبا من الغبار وهي تتجول في الصباح والمساء خلف ابواق رعاتها المصنوعة من قرون البقر . وانتقل تفكيره بعد ذلك الى المناقشات التى لا تنتهى مع أصدقائه فى موسكو حول امكان الحياة بهدوء دون حب ، وحول ان الحب ليس الا مرضا نفسيا ، واخيرا كيف ان الحب شىء لا وجود له ، وان الأمر لا يعدو ان يكون انجذابا جسديا بين الجنسين .. وهكذا . وملأه الحزن وهو يتصور ان احدا لو ساله الآن عن الحب ، لما عرف ماذا يقول له .

انتهت الصلاة ، واندفعت الجموع خارجة من الكنيسة . واخذ

لابتيف يرمق ، في شيء من الحذر ، الأشباح السوداء المتحركة في الشارع . ها هو ذا القسيس يبتعد عن عربته ، وتتوقف أصوات الاجراس ، والأضواء الخضراء والحمراء المعلقة في برج الكنيسة احتفالا بعيدها بدأت تنطفيء واحدا اثر الأخرى . ولكن الشارع ما زال ممتلئا بالناس مع ذلك ، بعضهم يمضي في طريقه ، والبعض الاخر يقف ليتحدث تحت نوافذ المنازل . واخيرا سمع لابتيف صوتا مألوفا له ، وتلاحقت خفقات قلبه . ولكن يوليا سيرجيفنا لم تكن وحدها ، كانت بصحبة سيدتين اخريين . فقال بهمسة يائسة :

— « آه يا عزيزتي ، آه يا عزيزتي ! هذا فظيع ! » .

توقفت عند ناصية الشارع لتودع رفيقتها ، وحين رفعت راسها لمحت لابتيف الذي قال :

— « كنت في طريقي لزيارة والدك ؟ هل هو في البيت ؟ » .

واجابت :

— « اعتقد ذلك ، فما زال الوقت مبكرا على موعد ناديه » ..

كانت الحدائق تحف بالشارع من الجانبين ، وفي أحد الجانبين وتحت ضوء القمر كانت اشجار الليمون تلقي بظلالها القائمة على البوابات والأسوار المحيطة بها ، ومن وسط الظلمة انبعثت همهمات نسائية خافتة وضحكات وتوقيع هاديء على « بلالايكا » . اثارته هذه الأصوات والرائحة المنبعثة من ازهار الليمون والأعشاب ، فود لو طوق رفيقته بذراعيه وامطر وجهها ، ويديهـــا ، وكتفيها بالقبلات ، والقى بنفسه باكيا عند قدميها يخبرها كم ظل ينتظرها . كانت تنبعث منها رائحة بخور عالقة بكيانها ، عادت به الى ذكريات الأيام التى كان فيها هو ايضا مؤمنا بالله ، يحضر صلوات المساء ، ويتوق للحب الشاعري الطاهر . وكان يدرك انها لا تحبه ، لذلك احس أن السعادة التى كان يحلم بها وقتذاك لن تتحقق ابدا .

تحدثت بعطف عن مرض شقيقته نينا فيودروفنا . فمنذ شهرين اجرت نينا عملية سرطان والجميع يتوقعون الآن ان تتعرض لنكسة .

وقالت يوليا سيرجيفنا :

ـ « لقد ذهبت لزيارتها هذا الصباح ، واعتقد انها قد تغيرت ـ حقا انها لم تعد نحيلة كما كانت في الأسبوع الماضي ، ولكنها ذابلة بعض الشيء مع ذلك » ..

وقال لابتيف :

« حقا ، انها لم تتعرض لنكسة فعلية ، ولكني استطيع أن ارى مع ذلك انها تزداد ضعفا كل يوم ، اراها تذوي امام عيني ، ولا ادري حقيقة ما بها » ..

وبعد لحظة من الصمت عادت يوليا سيرجيفنا تقول :

ـ « من يستطيع ان يتصور كيف كانت حتى عهد قريب ، في اتم صحة ، ممتلئة الجسد ، محمرة الخدين . وكان الجميع هنا يسمونها « فتاة موسكو » . شد ما كانت تضحك ! وفي أيام العطلات كانت ترتدي ثياب الفلاحات ، وكانت تلائمها الى أبعد حد ! » .

كان الدكتور سيرجي بوريستش لا يزال بالبيت ، وهو رجل بدين أحمر الوجه ، يرتدي سترة طويلة تصل الى ما تحت ركبتيه وتجعله يبدو قصير الساقين . وكان يذرع حجرة مكتبه جيئة وذهابا وقد وضع يديه في جيوبه ، وهو يهمهم لنفسه لحنه المعتاد « رو ـ رو ـ رو ـ رو ! » . وكان سالفاه الرماديان مشعثين ، وشعره مهوش وكأنه استيقظ من النوم لتوه . وكذلك حجرة مكتبه ، الوسائد على الأريكة ، وأكوام الورق القديمة في اركانها ، وكلبه العجوز تحت المائدة يبدو مشعثا ومتجهما كالطبيب نفسه ..

وقالت ابنته وهي تقتحم حجرة مكتبه :

ـ « مسيو لابتيف يرغب في رؤيتك » ..

ودندن الطبيب وهو يتجه الى حجرة الاستقبال :
ـ « رو ـ رو ـ رو ـ رو » ، ثم قال وهو يصافح لابتيف :
« أهلا بك ، ما هى الأخبار السعيدة ؟ » .

كانت حجرة الاستقبال مظلمة ، ووقف لابتيف ممسكا بقبعته فى يده ، واخذ يعتذر عن تطفله ، ويسأل عما يمكن عمله لمساعدة شقيقته على النوم اثناء الليل ، ولماذا تزداد نحولا ، وبينما هو يسأل الطبيب، كان يضايقه احساس غير مريح بانه سأل الأسئلة نفسها اثناء زيارة الطبيب الصباحية . وقال :

ـ لعل من الضرورى ان نستدعى اخصائيا من موسكو ، ما رايك ؟ » .

تنهد الطبيب ، وهز كتفيه بلا مبالاة ومد ذراعيه ..

كان من الواضح انه يشعر بانه أهين ، فقد كان شديد الحساسية بشكل عام ، يتصور دائما ان الناس لا يثقون به ، ولا يقدرونه حق قدره ، ولا يحترمونه كما ينبغى . مرضاه يسيئون استغلاله ، وزملاؤه يحقدون عليه ، وكان يضحك من نفسه بمرارة ، ويقول ان الحمقى من أمثاله يعرضون انفسهم للاستهانة بشأنهم ..

اضاءت يوليا سيرجيفنا المصباح . واستطاع لابتيف ان يدرك من ملامحها الفاترة وحركاتها المسترخية انها مرهقة من الصلاة بالكنيسة ، وانها بحاجة للانفراد بنفسها . وجلست على الوسادة وقد وضعت يديها فى حجرها وسرحت مع افكارها ..

كان لابتيف يعلم انه لم يكن وسيما ، وهو يدرك ذلك الآن بشكل ملموس . كان اميل للقصر ، ضعيف البنيان ، محمر الخدين ، وشعره بدا يخف من اعلى حتى اصبح راسه شديد الحساسية للبرد . وكان وجهه خاليا من ذلك السحر البسيط الذى يجعل حتى الوجوه العادية تبعث السرور فى نفس من يراها ، وكان

يضطرب في حضرة النســـاء ، ويسرف في الثرثرة ، ويتكلف في سلوكه . وهو الآن يحتقر نفسه من أجل ذلك . كان يعلم انه لابد من أن يبدأ حديثا ما اذا لم يشأ ان تشعر يوليا سيرجيفنا بالملل من صحبته . ولكن فيم يتحدث ؟ .. مرض اخته مرة اخرى ؟

بدأ يتحدث عن الطب ، وقال كل الأشياء المعتادة ، وأوصى بان يحافظ الانسان على صحته ، ثم أعلن انه منذ زمن طويل يدرس فكرة افتتاح فندق في موسكو ، وانه قام بالفعل بعمل التقديرات اللازمة لذلك . « والعامل الذي سيحضر لقضاء ليلة في فنـــدق سيقدم له طبق عليه بحساء الـكرنب مع الخبز ، وفراش دافيء نظيف بملاءة ، وسيجد مكانا يجفف فيه ملابســه وحذاءه – كل ذلك مقابل خمسة او ستة كوبكات » ..

كان من عادة يوليا سيرجيفنا ان تظل صامتة في حضرته ، ولكنه بطريقة غريبة ، ربما بغريزة العاشق ، كان يخمن أفكارها وما تريد عمله . وفي هذه اللحظة كذلك ، كان يقول لنفسه ، ما دامت لم تذهب الى حجرتها لتغير ملابسها وتحتسي الشاي بعد صلاة المساء ، فلابد انها ستعود الى الخروج .

واصل حديثه في غير ارتياح فقال للطبيب :

– « ولكنني لست متعجلا بشأن الفندق » .

حدق فيه الطبيب دون اهتمام ، وان كان من الواضح انه يتساءل بينه وبين نفسه لم تحدث في موضوع الطب والمحافظة على الصحة . ومضى لابتيف يقول :

– « الأغلب انى لن احتاج لهذه التقديرات بسرعة . انا اخشى ان يقع الفندق في أيدي بعض اصدقائنا المنافقين الدجالين ، او أولئك السـيدات من دعاة الانسانية اللائي يفسدن كل مشروع نافع » ..

وقفت يوليا سيرجيفنا ومدت يدها قائلة :

ــ « اذا سمحت لي يجب ان اذهب . ارجوك بلغ تحياتي لشقيقتك » ..

اخذ الطبيب يدندن : « رو ــ رو ــ رو ــ رو » .

خرجت يوليا سيرجيفنا ، وبعد ان خرجت ببرهة وجيزة استأذن لابتيف من الطبيب وعاد الى بيته . واذا بكل اشجار الليمون ، والظلال ، والسحب ، وكل ما في الطبيعة من جمال فطرى انيق يبدو في نظره الآن تافها ، شأنه دائما حين يكون الانسان غير راض او تعسا . ارتفع القمر في كبد السماء وتلاحقت السحب تحته مسرعة كأنها في سباق ..

وقال لابتيف لنفسه « يا له من قمر ريفى ساذج ، ويا لها من مجموعة من السحب تدعو للرثاء » . كان خجلا من نفسه لأنه تحدث عن الطب وعن فندقه ، وأفزعه ان يتذكر انه في الغد لن يستطيع مرة اخرى مقاومة اغراء الرغبة في رؤيتها والتحدث معها ، وانه سوف يقنع نفسه من جديد بأنها لا تهتم به . وسوف يحدث الشيء نفسه في اليوم التالى . متى وكيف سينتهي كل ذلك ؟ ..



ما ان وصل لابتيف الى البيت حتى ذهب الى حجرة شقيقته .. كانت نينا فيودوروفنا لا تزال محتفظة بمظاهر الصحة والعافية فمن الممكن الا يعتقد الانسان انها مريضة لولا شحوبها المخيف الذى يضفي على وجهها حين تستلقي على ظهرها وتغلق عينيها مظهرا كالأموات ..

وكانت ساشا ، كبرى بنتيها ، وهى فى العاشرة من عمرها ، جالسة الى جوارها تقرا بصوت عال في كتاب مدرسى .

وتمتمت المريضة قائلة :

— « الكسي هنا » .

كان هناك ثمة اتفاق متفاهم عليه بين ساشا وخالها على أن يتناوبا الجلوس الى جوار فراش المريضة . فأغلقت ساشا كتابها وانسلت خارجة دون كلمة . واخذ لابتيف رواية تاريخية من على مائدة الزينة ، وعثر على الصفحة المطلوبة ، وبدأ يقرأ بصوت مرتفع .

كانت نينا فيودوروفنا من بنات موسكو . قضت طفولتها مع شقيقها في منزل والدهما التاجر بشارع بياتنيتسكايا . وكانت طفولة طويلة حزينة . فقد كان ابوها شديد الصرامة في معاملتها ، بل لقد ضربها بالسوط أكثر من مرة ، وماتت والدتها بعد مرض طويل . وكان الخدم كسالى ، خشنين ومنافقين ، والرهبان والقسس الذين يترددون على البيت كانوا هم أيضا خشنين ومنافقين، كانوا يأكلون ويشربون بشهية ويثنون على ابيها الذى يحتقرونه . وكان الصبيان محظوظين اذ اتيح لهما الذهاب الى المدرسة ، اما نينا فقد ظل تعليمها قاصرا ، فقد تعلمت القراءة والكتابة لا أكثر . وكانت لا تقرأ شيئا سوى الروايات التاريخية . وحين بلغت الثانية والعشرين — منذ ما يقرب من سبعة عشر عاما التقت بزوجها الحالى بانوروف ، خلال صيف أمضوه بالريف فى « خيمكى » فاحبته وتزوجته سرا ضد رغبة أبيها . فبانوروف صاحب الارض الوسيم المغرور ، الذى يصفر بفمه ويشعل سيجارته من مصباح الايقونة المقدسة ، كان تافها حقيرا فى راى الرجل العجوز ، وحين بدأ زوج ابنته يرسل اليه خطابات يطالبه فيها ببائنة ، كتب الى ابنته يقول انه يرسل اليها معاطف الفراء والفضيات وغيرها من حاجيات والدتها ، وفوقها ثلاثون الف روبل ، ولكنه يرفض ان يباركها . وبعد مدة ، أرسل اليها عشرين الف روبل اخرى . ولم يمض وقت طويل الا وكانت النقود والبائنة قد انتهت ، وبيع المنزل

الريفي ، وانتقل باتوروف مع أسرته الى المدينة ليعمل موظفا فى ادارة المقاطعة .. وهناك كون لنفسه اسرة اخرى ، فأثار ذلك شائعات كثيرة ، خاصة وانه لم يحاول اخفاءه .



كانت نينا فيودروفنا تعبد زوجها ، والآن وهي تنصت للرواية التاريخية ، كانت تفكر فى كل ما مرت به خلال السنوات الماضية ، وكيف ان قصة حياتها الخاصة ستكون حزينة جدا لو قدر لاحد ان يكتبها .. ولما كانت أعراض المرض فى صدرها ، فقد كانت مقتنعة تماما أن مرضها كان نتيجة لحب شقي ، وان الدموع والغيرة قد سلبتاها صحتها .

اغلق الكسى فيودروفيتش الكتاب وقال :

— « وهكذا انتهت هذه الرواية والحمد لله ، وغدا نبدا رواية اخرى » .

ضحكت نينا فيودروفنا ، فهى تضحك بسهولة دائما ، ولكن لابتيف بدا يلاحظ أن مرضها يؤثر فى بعض الاوقات على عقلها ، فتضحك لكل تافه من الأمور ، وأحيانا بلا سبب بالمرة .

وقالت :

— « يوليا كانت هنا هذا الصباح ، بعد أن خرجت ، لا اظن انها تؤمن بابيها كثيرا ، فقد قالت دعي أبي يعالجك ، ولكنى يجب ان انصحك بأن تكتبى أيضا بصفة سرية لذلك الرجل المبارك كي يصلى من اجلك . فهناك رجل مبارك في المدينة كما تعلم . وقد نسيت يوليا مظلتها ، يجب أن ترسلها اليها غدا » . ثم واصلت حديثها بعد قليل :

— « ولكن حينما تأزف النهاية لا يفيد أطباء ولا مباركون » .

وسألها لابتيف ليغير الموضوع :

ــ « نينا ، لم لا تنامين الليل ؟

ــ لا اعلم . كل ما فى الامر انى لا استطيع . انى استلقى واظل مستيقظة افكر .

ــ وفيم تفكرين يا عزيزتى ؟

ــ فى الأطفال ، وفيك .. وفي حياتي . لقد عانيت الكثير يا الكسي . وحين اتذكر كل شيء ــ يالله ! » .

وضحكت ثم واصلت حديثها :

ــ « لقد ولدت خمس مرات ، ودفنت ثلاثة اطفال .. فى بعض الاحيان كنت على وشك الوضع وعزيزى جريجورى نيكولافيتش جالس هناك مع تلك المراة ، فلا احد ارسله لاستدعاء القابلة . وحين اخرج الى الصالة او المطبخ باحثة عن الخادمة ، اجد امامى .. يهودا وتجارا ومرابين جالسين فى انتظار عودته ، فيكاد راسى ينفجر .. انه لا يحبنى ، وان كان لم يقل ذلك ابدا . لم يعد ذلك يهمني الآن او يؤذى مشاعرى ، ولكنني حينما كنت اصغر سنا كنت غاية فى التعاسة ، غاية فى التعاسة يا عزيزى . مرة وجدته فى الحديقة مع احدى السيدات ــ وكنا نعيش في الريف وقتذاك ، فاستدرت وسرت مبتعدة دون ان اعلم الى اين انا ذاهبة حتى وجدتنى امام الكنيسة . جثوت على ركبتي وصرخت ، « ايتهـــــا الام المباركة ! » وكان الظلام قد انتشر ، واشرق القمر » ..

وتوقفت تسترجع انفاسها ، وبعد أن استراحت قليلا امسكت بيد شقيقها وقالت بصوت خال من التعبير :

ــ « ما اطيبك يا الكسى ، وما اشد لطفك ، وطيبة قلبك ! » .

غادر لابتيف حجرة شقيقته في منتصف الليل ، واخذ معه مظلة يوليا سيرجيفنا رغم تلك الساعة المتاخرة وقد وجد الخدم يحتسون الشاي فى حجرة الطعام . وقال لنفسه ان البيت خال

من كل نظــام . كانت الطفلتــــان لا تزالان مســتيقظتين وفي حجرة الطعام ايضا . وكانوا يتحــــدثون بصوت منخفض ، وباصـــوات مضطربة ، دون أن يلاحظوا ان المصــباح المرتعش يوشك ان ينطفيء : فقد كان الكبار والصغار على السواء منزعجين بسبب بعض نذر السوء التي ظهرت اخيرا .

مرآة الصالة شرخت ، وابريق الشاي الكبير يصدر صفيرا كل يوم ، بل كان يصفر الآن ايضا كانما من الحقد ، وقالوا ان فارا قفز من حذاء نينا فيودروفنا وهي توشك ان تضع قدميها فيه . وحتى الاطفال أصبحوا يعرفون الآن الدلالة المخيفة لهذه النذر . كانت ساشا ، وهي أكبر الفتاتين ، نحيلة ، سوداء الشعر ، تجلس الى المائدة بلا حراك وقد بدا عليها الخوف والألم ، اما ليدا الصغيرة الشقراء ، وهي في السابعة من عمرها ، فكانت تقف الى جوارها متجهمة للنار .

هبط لابتيف الى جناحه في الدور الارضي ، وكانت حجراته خانقة منخفضة السقف ، تنبعث منهــــا رائحة كرائحة الاعشاب الرطبة . ووجد زوج نينا في حجرة جلوسه يقرا جريدة . هز لابتيف راسه وجلس في مواجهته دون ان يتفوه اي منهما بكلمة ، فقد كان باستطاعتهما ان يمضيا معا امسيات كاملة على هذا النحو دون ان يتبادلا كلمة واحدة .

ونزلت الفتاتان لتقولا مساء الخير . ودون كلمة رسم باوروف علامة الصليب عليهما وسمح لهما بتقبيل يده ، فانحنيتا واتجهتا الى لابتيف الذي رسم عليهما علامة الصليب ايضا واعطاهما يده لتقبلاها . وكانت هذه المراسيم تتكرر كل مســاء .

وحين ذهبت الفتاتان ألقى باوروف صحيفته جانبا وقال :

ـ « الا ما أشد سخافة الحياة هنا في هذه المدينة التي تخاف الله ! اعترف يا صديقي العزيز » .

ثم اضاف وهو يتنهد :

« اني سعيد جدا لانك وجدت اخيرا ما يسليك » .

وسأل لابتيف :

ـ « عم تتحدث ؟

ـ لقد رأيتك خارجا من منزل دكتور بيلافين منذ بضعة أيام . اعتقد انك لم تذهب الى هناك من اجل الأب ؟ » .

وأجاب لابتيف وقد احمر وجهه :

ـ « بالطبع لا .

ـ هذا أمر طبيعي . بالمناسبة ، ان اباها ذاك عجوز أحمق ومزعج ليس بوسعك ان تتصور مدى قبائحه وثقل ظله ! انه جلف عاجز مغرور . أنتم سكان العاصمة ما زلتم لا ترون سوى الجانب المشرق في الأقاليم ، كالمناظر الشاسعة وأنطون جوريميكا ، ولكني أؤكد لك يا صديقي انه ليس في الاقاليم كلها اي جانب مشرق . بل لا شيء غير التوحش ، والانحطاط ، والقذارة . ولنأخذ على سبيل المثال مصادر الضوء والمعرفة ، او من نسميهم بالمثقفين . في هذه المدينة ثمانية وعشرون طبيبا ، كلهم كونوا ثرواته ويسكنون منازل يملكونها . ومع ذلك فما زال اهل المدينة مرضى عاجزين كما هم . وحينما تحتم علينا ان نجري عملية لنينا ، واذكرك انها عملية بسيطة ، اضطررنا الى استدعاء جراح من موسكو ـ فلم يكن هنا جراح واحد يستطيع اجراءها . تصور ! انهم لا يعرفون شيئا ، ولا يفهمون شيئا ، ولا يهتمون بشيء . جرب مرة واسألهم عن السرطان مثلا ما هو ، وما أسبابه » .

ومضى بانوروف يشرح ما هو السرطان . كان خبيرا في كل فروع

العلم ، وكان لديه لكل شيء تعليل علمي ، وان كان تعليلا خاصا به . كانت لديه نظريته الخاصة عن الثورة الدموية ، وكان لديه علم كيمياء وعلم فلك خاصان به ، وكان يتحدث ببطء ، وبرقة المتفضل ، وعيناه نصف مغمضتين ، ويتعجب قائلا « تصور هذا ! » في همس شبه متوسل تسبقه وتعقبه تنهيدات وابتسامات متلطفة . كان من الواضح انه شديد الاعجاب بنفسه ، لا يحس بالمرة بانه في الخمسين من عمره .

وقال لابتيف :

ــ « أنا جائع . شيء من الطعام المحفوظ قد يؤدي المطلوب . فهذا شيء من السهل اعداده » .



وبعد قليل كان لابتيف وزوج شقيقته جالسين في حجرة الطعام بالدور العلوي يتناولان عشـــــــاءهما . احتسى لابتيف كاسا من « الفودكا » ثم اتبعه بالنبيذ . اما بانوروف فلم يشرب شيئا . فهو لا يشرب ابدا ولا يلعب الورق ، ومع ذلك استطاع ان ينفق ثروته وثروة زوجته ويغرق نفسه في الديون كذلك . فيضيع كل هــذا القدر الكبير من المال في مثل هذا الوقت القصير لا يتطلب قدرا من الرذيلة بقدر ما يحتاج الى نوع خاص من الموهبة . وكان ببانوروف ضعف خاص للطعام الجيد ، والخدمة الممتازة ، والغذاء على عزف الموسيقى ، وانحناء الخدم الذين يلقى اليهم عادة بورقة من ذات العشرة روبلات ، واحيانا من ذات الخمسة والعشرين ، كبقشيش ، وهو يسهم بصفة دائمـــة في كل انواع الاشتراكات واليانصيب ، ويرسل الأزهار الى كل صديقـــاته في أيام اعيـــادهن ، ويشتري الكؤوس ، والحوامل الزجاجية ، وازرار القمصان ، واربطة العنق ، والعصي ، وحلى الزينة اليابانية ، وكل انواع الغرائب ، ولا يرتدي

فى المساء الا قمصانا من الحرير ، وسريره من الابنوس المطعم بالصدف ، ورداء نومه من حرير « بخارى » الأصلى ، وهكذا ، وكل ذلك يكلفه « أكواما من النقود » على حد تعبيره .

كان طوال العشاء يتنهد ويهز راسه ، ثم قال بلطف وقد ضاقت عيناه السوداوان :

ــ « نعم ، لكل شىء نهاية فى هذا العالم . تقع فى الحب ، وتقاسى ثم تتخلص من الحب مرة اخرى ، وستخونك حبيبتك لان كل النساء خائنات ، ان عاجلا أو آجلا ، فتقاسى وتياس ، وفى النهاية تخونها انت ايضا . ولكن سيأتى الوقت الذى يصبح فيه كل ذلك مجرى ذكرى تتحدث عنها ببرود وتعتبرها عبثا لا اكثر ولا اقل » .

كان لايتيف مرهقا وقد لعبت الخمر براسه قليلا ، فنظر الى راس بانوروف الانيق بلحيته السوداء المشطة بعناية ، واحس انه يفهم لماذا كانت النساء شديدات التعلق بهذا الرجل الوسيم ، المتدفق ، الواثق بنفسه .



بعد العشاء ذهب بانوروف الى مسكنه الآخر ، وصاحبه لايتيف فى جزء من الطريق . وكان بانوروف هو الشخص الوحيد فى المدينة الذى يرتدى قبعة عالية ، والى جوار الأسوار الرمادية ، والبيوت الخشبية الفقيرة والشجيرات الصغيرة اذا بقامته الانيقة المعتزة ، وقبعته العالية ، وقفازيه الصفراوين ، تبدو غريبة شاذة ومثيرة للأسى على نحو من الانحاء .

ودعه لايتيف ثم سار ببطء عائدا الى البيت . كان ضوء القمر قويا الى ابعد حد حتى لقد استطاع لايتيف ان يرى بوضوح كل قطعة صغيرة من العشب ، واحس لايتيف وكان ضوء القمر يقبل

راسه العاري بلمسة رقيقة حانية .

وقال بصـــــوت مرتفع : « انا أحب ! » . كان يريد أن يلحق بيانوروف ، ويعانقه ، ويعفو عن كل اخطائه ، ويقدم له كمية كبيرة من المال ، ثم يجري الى مكان ما في الحقول او الغابات دون ان ينظر خلفه .



وحين عاد الى البيت راى على احد المقاعد المظلة التي نسيتها يوليا سيرجيفنا ، فأخذها ، ورفعها ، وضغط عليها بشفتيه . كانت مظلة من الحرير ، ولكنها ليست جديدة بحال ، وكانت مربوطة بشريط قديم من المطاط ، ولها مقبض من العظم الابيض الرخيص . فتحها لابتيف ووضعها فوق راسه وبدا له ان يستشعر انفاس السعادة الحقة .

جلس على احد المقاعد بارتياح وهو ما زال ممسكا بالمظلة ، ثم بدا يكتب خطابا لواحد من اصدقائه في موسكو .

« عزيزي كوستيا العزيز لدي لك بعض الأخبار : لقد وقعت في الحب مرة اخرى ! واقول « مرة اخرى » لاني منذ ست سنوات ولعت في حب ممثلة من ممثلات موسكو لم أنجح في مقابلتها ، ومنذ عام ونصف وانا اعيش مع « الشخص » الذي تعرفه — وهي امراة ليست صغيرة ولا جميلة . آه ، يا صديقي العزيز ، ما اشد تعاستي في الحب ! لم اكن موفقا ابدا مع النساء ، واذا كنت اقول « مرة أخرى » فما ذلك الا لانه من المؤلم والمحزن أن اعترف لنفسي بأن شبابي قد انقضى دون حب واني الآن فقط في الرابعة والثلاثين بدأت اعرف ما هو الحب حقا . لذلك لنقل « مرة اخرى » .

« فقط لو اتيح لك ان تعرف هذه الفتاة ! لن تسميها جميلة — فعظمتا وجنتيها بارزتان ، وهي نحيلة جدا ، ولكن اي حنو يفيض

من وجهها ، واي روعة في ابتسامتها ! ان صوتها تغريد . وهي لا تتحدث معي ابدا ، لذلك لا استطيع ان اقول اني اعرفها حقا ، ومع ذلك فحين اكون قريبا منها اشعر انني في حضرة مخلوق نادر عجيب ، شديد الحكمة والسمو انها متدينة ، ولا تستطيع أن تتصور الى أي حد يؤثر ذلك في نفسي ويسمو بها في نظري . وفي هذا الموضوع انا مستعد لمناقشتك الى ابعد مدي . سأفرض انك على حق ، فسر الامر على طريقتك ، ومع ذلك فانا احبها حين تصلي في الكنيسة . انها فتاة من بنات الاقاليم ، ولكنها تعلمت في موسكو ، وهي تحب مدينتنا موسكو ، وترتدي أحدث أزياء موسكو ، ولهذا ايضا احبها ، أحبها ، احبها . استطيع ان اراك وانت تعقد حاجبيك وتنهض لتلقي محاضرة طويلة عن الحب ما هو ، ومن هو الشخص الذي يجب أن نحبه والشخص الذي يجب الا نحبه ، الخ ، الخ . ولكن يا عزيزي كوستيا ، قبل ان احب انا بنفسي ، كنت انا الآخر اعرف بالضبط ما هو الحب ..

« شقيقتي تشكر لك تمنياتك . وكثيــرا ما تتذكر كيف كانت تصحب الصغير كوستيا كوتشغوا الى الفصول التحضيرية ، وما زالت تسميك « كوستيا المسكين » لانك ما زلت في نظرها ذلك الطفــل الصغير اليتيم . وعلى ذلك ، فايها الطفل الصغير اليتيم المسكين ، انا احب . ولما كان الامر سرا ، لذلك ارجوك الا تبوح بشيء لذلك « الشخص » الذي يهمه الامر . واعتقد ان المسألة ستسوي بطريقة مرضية ، أو ، كما يقول الخادم في رواية تولستوى ، كل شيء سيصحح نفسه بنفسه » .

بعد ان انتهى الخطاب آوى لابتيف الى فراشه . وكان الارهاق يثقل عينيه ، ولكنه لسبب ما لم يستطع النوم ، واعتقد ان ضجيج الشارع هو الذي حرمه النوم ، فقد كان يسمع القطعان وهي تساق

الى جوار البيت ، وصوت البوق المصنوع من قرن ثور ، وبعد ذلك بقليل دق ناقوس الكنيسة لصلاة الفجر . ثم سارت عربة متثاقلة بالقرب من المنزل ، وجاء بعدها صوت فلاحة فى طريقها الى السوق، ولم تكف العصافير عن شقشقتها المتصلة .

- ٢ -

كان يوما بهيجا مشرقا . وفي حوالي الســـاعة العاشرة قادوا نينا فيودروفنا ، وقــد ارتدت ثوبا بنيا ، ومشطت شعرها باناقة ، الى حجرة الجلوس ، سارت في الحجرة قليلا ، ثم وقفت امام النافذة المفتوحة تبتسم ابتسامتها الكبيرة كابتسامة طفل . ان المرء حين ينظر اليها ، يتذكر ما قاله عنها مرة فنان اقليمي وكان رجلا مغرما بالخمر ، من أن وجهها كالصورة المقدسة ، وقد طلب منها ان تقف امامه ليرسم صورة ليوم الاعتراف المقدس في روسيا .

نجاه في ذلك الصباح كان الجميع ـ الأطفال ، والخدم ، وشقيقتها الكسي ، وحتى هي نفسها ـ واثقين تماما بأن صحتها ستتحسن . واخذت الفتاتان الصغيرتان تجريان وراء خالهما ، وهما تضحكان بصوت مرتفع ، وعادت الحياة الى البيت من جديد .

وجاء الناس ليطمئنوا على صحتها ، واحضروا معهم الفطـــائر المقدسة ، وقالوا انه اقيمت في ذلك اليوم صلوات من اجلها في معظم كنائس المدينة ، فقد كانت معروفة باحسانها ، وكان الناس يحبونها . كانت تقدم الاحسان بسخاء ، كشقيقتها الكسي ، الذي كان يمنح المال ببســاطة ، دون أن يتوقف ليفكر ان كان من الحكمة اعطاؤه أم لا . وكانت نينا فيودروفنا تدفع مصاريف التعليم للطلبة المحتاجين وتقدم الشاي والسكر والمربى للنسوة العجائز ، وتجهز العــرائس المعوزات ، واذا وقعت صحيفة في يدها تناول ما تبحث عنه فيهــا نداء يطلب المساعدة ، أو شكوى أدلى بها مكروب .

والآن ايضا تقبض يدها على حزمة من الاوراق حصل المحتاجون بموجبها على الطعام على حسابها ، وها هو البقال يطالب بماله . وقالت ، وهي لا تكاد تتبين خطها على الاوراق :

ـ « بالله ، ما اكثر ما اخذوه ! أليست لديهم ضمائر بالمرة ؟ تصور ! اثنان وثمانون روبل ! ماذا لو امتنعت عن الدفع ؟ » .

فقال لابتيف :

ـ « سادفع له اليوم » .

ولكن نينا فيودروفنا عادت تقول باضطراب :

ـ « لا ، لا تفعل » .

ثم اضاف بصوت منخفض لكيلا يسمع الخدم :

ـ « يكفى انى آخذ كل شهر ٢٥٠ روبل منك ومن فيودور . فليبارككما الله » .

فقال :

ـ « ولكنى انا نفسي انفق كل شهر الفين وخمسمائة روبل . واقول لك مرة اخرى يا عزيزتى ، ان من حقك ان تنفقى مثلى ومثل فيودور . ارجوك ان تفهمى هذا وتريحينى . نحن ثلاثة ، وكل كوبك يخرج من اى منا هو من حقك انت » .

ولكن نينا فيودروفنا لم تستطع ان تفهم ، وبدا من تعبير وجهها انها مرتبكة فى مسألة حسابية معقدة . وكان عجزها عن ادراك ما يتعلق بالمسائل المالية يزعج لابتيف دائما . وكان يشك ايضا فى ان عليها ديونا خاصة تخجل من الاعتراف بها وتتسبب فى ايلامها .

فى تلك اللحظة سمعت على السلم اصوات اقدام وانفاسا لاهثة . انه الطبيب ـ مضطرب الهندام كالعادة ويهمهم :

« رو ـ رو ـ رو ـ رو » .

ولكى يتجنب لابتيف مقابلته ، خرج عبر حجرة الطعام ، ثم هبط

الى شقته ، انه لم يستطع ابدا ان يوثق علاقته بالطبيب بالقـــدر الكافي لكى يزوره فى منزله كثيرا ، فضلا عن انه لم يكن يحتمل ذلك « الأحمق العجوز » كما يسميه يانوروف . ولهذا السبب كان لا يرى يوليا سيرجيفنا الا نادرا . وخطر بباله : الآن والاب ليس بالمنزل ، ماذا لو اخذ الى يوليا سيرجيفنا مظلتهـــا ؟ لا شك انه سيجدها وحدها ، وقفز قلبه فى صـــدره من السعادة . يجب ان يسرع ، يسرع !



اخذ المظلة ، وكل ما فيه يرتجف ، وطار اليها على اجنحة الحب . كان الجو فى الخارج حارا . وكانت هناك مجموعة من الصبية ــ اطفال من سكان المبانى المهدمة الملحقة التى ينوى الطبيب اصلاحها منذ سنوات ــ كانوا يلعبون الكرة وسط الحشائش والنباتات فى فناء الطبيب الواسع ، وكان الهواء يضج بصيحاتهم القوية . وفى ركن الفناء البعيد ، كانت يوليا سيرجيفنا واقفة الى جوار عتبة بيتها ، ترقب المباراة وقد ضمت يديها خلف ظهرها .

ناداها لابتيف قائلا :

ــ « صباح الخير ! » .

فالتفتت ، ولاحظ أن وجهها الذى تعود ان يراه باردا او غير مبال ، او مرهقا كما كان بالامس ، قد اكتسبت حيوية وتورد كخدود الصبية المحيطين بها . وقالت وهى تتقدم للقائه :

ــ « أنظر ، لا يمكن ان ترى مثل هذه الألعاب الجميلة فى موسكو ، ولكن الافنية هناك اصغر بكثير بطبيعة الحال ، وليس هناك مكان للجرى » .

ثم اضافت وهى تستدير لتنظر الى الأطفال :

« لقد ذهب ابى منذ قليل الى بيتكم » .

فأجابها لابتيف وهو يتأمل باعجاب شبابها الذى اكتشفه الآن ، وعنقها الأبيض الرشيق وقد زينته سلسلة ذهبية :

ــ « اعرف . لقد جئت لأراك انت لا هو » .

ثم كرر قوله :

ــ « جئت لأراك انت ، مظلتك ، طلبت اختي مني أن أحضرها لك .

لقد نسيتها أمس » .

مدت يدها لتأخذ المظلة ، ولكنه فجأة ضمها الى صدره ، وقال بعاطفة ، وقد استسلم باندفاع لتلك السعادة الغريبة التي مارسها ليلة الأمس حين فتح المظلة :

ــ « ارجوك اسمحي لى بان احتفظ بها ، سوف اقدسها كذكرى لك ... لصداقتنا . ما أروعها ! » .

اجابته وقد احمر وجهها خجلا :

« ــ تستطيع ان تحتفظ بها ، ولكنها خالية من كل روعة » .

حدق فيها بوجه صامت ، وضاعت منه الكلمات ..

وبعد برهة من الصمت قالت :

ــ « ويلى ، لماذا ادعك فى الخارج تحت هذه الشمس المحرقة ؟ » ثم ضحكت واضافت :

ــ « هيا بنا الى الداخل ..

ــ اخشى ان اعطلك ؟ » .

ودخلا البيت ، واسرعت يوليا سيرجيفنا تصعد السلم ولثوبها الأبيض المنقوش بالأزهار حفيف مسموع ، ثم توقفت على السلم لتجيبه :

ــ مستحيل أن تعطلني ، لأني لا افعل شيئا . كل يوم عطلة بالنسبة لى ، من الصباح الى المساء .

فقال وهو يصعد اليها :

ــ هذا شيء لا استطيع أن أفهمه ، فقد نشأت كما تعلمين ، بين قوم يعملون كل يوم . يستوى فى ذلك الرجال والنساء .

سألته :

ــ « ولكن ماذا يحدث اذا لم يكن هناك ما يفعلونه ؟

ــ « يجب أن يرتب الانسان حياته على أساس ان العمل ضرورة . فبدون العمل لا يمكن أن تكون الحياة طاهرة ومرحة » .

وضم المظلة مرة أخرى ، ولدهشته سمع نفسه يقول برقة وبصوت لم يكد يتعرف فيه على صوته :

ــ « لو وافقت على أن تكونى زوجتي فسأعطيك كل ما أملك . كل شيء .. ليس هناك شيء ، ولا تضحية الا وسابذلها » .

فوجئت ونظرت اليه في فزع ودهشة ، ثم قالت وقد شحب وجهها :

ــ « أوه ، لا ! هذا مستحيل . أؤكد لك . ارجو المعذرة » .

وجرت مسرعة على السلم ، ولثوبها حفيف مسموع ، واختفت خلف الباب .

تغيرت حالته النفسية بحدة كأنما خبا الضوء مع روحه . واسرع الى خارج المنزل ، وهو يحترق فى نار الخجل والاحساس بالمذلة ، وقد سيطر عليه الاعتقاد بانه اهين وانه غير محبوب ، بل وكريه ، ومثير للاشمئزاز أيضا .

وبينما هو يسير تحت الشمس المحرقة فى طريق العودة الى البيت ، اخذ يسخر من نفسه وهو يتذكر تفاصيل اعترافه :

ــ « سأعطيك كل ما املك ، سأعطى كل شيء ــ مثل أى تاجر ! وكأن هناك من يريد كل ما لديك ! » .

كل ما قاله حماقة مثيرة . لماذا كذب بقوله انه نشا وسط قوم

يعملون كل يوم ؟ ولماذا وعظ عن الحياة الطاهرة المرحة ؟ كل ذلك غباء ، وتفاهة ، وزيف ـ او خداع زائف باسلوب موسكو .

ولكن شيئا فشيئا تغيرت حالته النفسية الى نوع من اللامبالاة التامة شبيهة بما ينتاب المجرم بعد نطق الحكم ، أنه الآن يشكر الله على ان كل شيء قد انتهى وانه قد تخلص من حالة الشك المؤلمة . لقد وضح الآن كل شيء ، لا سعادة له ، ولا آمال ، ولا احلام . ولا حنين ، ولكي يتجنب ذلك الملل الذي يعذبه ، سوف يشغل نفسه بسعادة الآخرين . وقبل ان يفطن ، ستكون السن قد تقدمت به ، وسيستوى كل شيء . والآن لم يعد يعبأ بشيء ، وباستطاعته ان يزن الامر كله دون عاطفة او انفعال . ومع ذلك فهو يحس بوجهه ثقيلا ثقلا غريبا ، وبخاصة اسفل عينيه ، ويحس بجبهته مشدودة كأنها من المطاط . وكأن الدموع ستنفجر من عينيه الى الأمام ..

استلقى على سريره ضعيفا متهالكا ، ولم تمض خمس دقائق حتى راح في سبات عميق ..

إحدث طلب لابتيف الزواج دون توقع خيبة أمل عميقة فى نفس يوليا سيرجيفنا ، فهى لا تعرفه الا معرفة سطحية ، قابلته مصادفة . انه رجل ثرى ، واحد أصحاب مؤسسة فيودور لابتيف وأولاده المشهورة في موسكو ، جاد دائما ، وواضح الحلق ، شديد الاهتمام بصحة شقيقته . وقد اعتقدت انه لا يكاد يحس بوجودها ، وهي نفسها لم تكن لتكترث به — والآن اذا بهــــذا الطلب للزواج على السلم ، وتلك النظرة المشفقة المتعالية على وجهه ..

لقد اضطربت تماما لان الامر حدث فجأة ودون أي تمهيد ، ولانه استخدم كلمة « زوجة » ولانها كان عليها أن ترفضه . انها لا تذكر ماذا قالت له ، ولكن الاحساس بالنفور ما زالت أصداؤه تتردد فى نفســها . انها لا تحبه ، فمظهره كمظهر البائع المتجول ، وليس فيه ما يثير أقل قدر من الاهتمام ، ولم يكن باستطاعتها أبدا ان تقبله . ولكنها لم تكن مرتاحة مع ذلك ..

قالت لنفسها بيأس وهي تلتفت الى الصورة المقدسة المعلقة فوق سريرها :

« يالله — على السلم ، ودون حتى أن يدخل الحجرة ، بل ودون كلمة مجاملة ، وبهذا الأسلوب العجيب ! » .



ظلت وحيدة ، وأخذ قلقها يزداد مع مرور الوقت حتى وجدت نفســها فى حاجة الى أن تتحدث مع شخص ما ، فى حاجة الى ان

تتأكد من أن ما صنعته هو الصواب . ولكن لم يكن هناك من تتحدث معه . أمها ماتت منذ زمن بعيد ، وابوها ليس بالرجل الذي تستطيع أن تحادثه في أمر جاد . فنزواته وحساسيته المؤلمة واشاراته المبهمة كانت تزعجها ، فضلا عن أنه مهما كان الموضوع الذي تحادثه عنه فانه دائما يحول المناقشة الي نفسه . وكذلك لم تكن صريحة تماما في صلواتها ، لأنها لم تكن تعرف بالضبط ما الذي تصلي من اجله ..



أدخلوا ابريق الشاي الكبير . كانت يوليا سيرجيفنا تبدو شديدة الشحوب ومرهقة ، وقد سيطر عليها احساس بالعجز . دخلت حجرة الطعام ومزجت الشاي — وهو واجبها اليومي — وملأت كوب ابيها . وكان سيرجي بوريستتش في سترته الطويلة التي تصل الي ما تحت ركبتيه ، وشعره غير المشط ، ويداه داخل جيوبه ، يذرع حجرة الطعام كحيوان محبوس في قفص . وبين الحين والآخر يتوقف أمام المائدة ليرشف من كوبه بصوت مزعج ثم يواصل خطواته وهو شارد الذهن كما هو ..

قالت يوليا سيرجيفنا :

« لابتيف عرض على الزواج اليوم » .

واحمر وجهها ، فرمقها الطبيب بعينيه وبدا كمن لم يفهم وسألها :

« لابتيف عرض على الزواج اليوم » .

كان يحب ابنته ، ويدرك انها ان عاجلا أو آجلا ستتزوج وتتركه، ولكنه كان يحاول الا يفكر في الأمر . كان يفزع من مصيره المتوقع حين يعيش في هذا البيت الكبير وحده ، وان لم يكن يعترف بذلك ، ولكنه كان مقتنعا بينه وبين نفسه أنه لو حدث ذلك فسيصاب ذات يوم بسكتة قلبية ..

قال وهو يهز كتفيه :

ـ « ما أشد سعادتي حقا ، أهنئك من صميم قلبي ، امامك الآن فرصة رائعة كي تتركيني ، ومعك كل الحق . فلابد ان الحياة مع اب عجوز ، مخلوق مريض شبه مهووس ، شاقة جدا على شخص في مقتبل العمر ، معك الحق تماما . وكلما اسرعت بالتذمر ، اسرع الشيطان في قبض روحي ، فتزداد بذلك سعادة الجميع . أهنئك يا عزيزتي .

ـ لقد رفضته » ..

أحس الدكتور براحة كبيرة لذلك ، ولكنه لم يستطع كبح جماح نفسه ، ومضى يقول :

« كثيرا ما اتساءل لماذا لم أوضع حتى الآن في مستشفى للمجاذيب ، لماذا أرتدي هذه السترة بدلا من « جاكيت » بسيطة ؟ اني ما زلت أومن بالصدق والخير . انا واحد من مثاليك المعتوهين ، او ليس هذا جنونا في عصرنا ؟ ما الذي احصل عليه مقابل صدقي وأمانتي ؟ الناس يستغلونني ويكادون يرجمونني بالاحجار . حتى اقرب الناس الي يحاول الركوب على رقبتي ، فما احمقني من عجوز أبله » ..

وقالت يوليا :

ـ الحديث معك مستحيل يا ابي !

ونهضت وغادرت المائدة مسرعة وذهبت الى حجرتها وقد اشتد بها الغضب . ما اكثر ما ظلمها . ولكنها سرعان ما شعرت بالحزن من أجله ، وحين ازف موعد ذهابه الى ناديه ، صحبته في هبوطه الدرج ، واغلقت خلفه الباب بنفسها .

كانت ليلة عاصفة مضطربة الجو اهتز الباب تحت ضغط الريح ، واشتد تيار الهواء عند مدخل البيت حتى كاد يطفيء شمعتها .

صعدت يوليا الى الدور العلوي ومرت بجميع حجراته ، ورسمت علامة الصليب فوق كل النوافذ والأبواب . عوت الريح وخيل اليها انها تسمع وقع اقدام شخص يسير فوق السقف . ومر الوقت ببطء ، واحست بالوحدة اكثر من اى وقت مضى .



سالت نفسها هل كانت مصيبة في رفضها لابتيف لا لشيء الا لأن مظهره لا يعجبها . حقا ، هى لا تحبه ، والزواج منه معناه الوداع الأبدي لكل أحلامها ، ولما تخيلته عن السعادة والحياة الزوجية ، ولكن هل ستلتقي حتما بالرجل الذى تحلم به ؟ انها الآن في الحادية والعشرين وليس فى المدينة رجال صالحون للزواج . فكرت فى كل من تعرفهم من الرجال ، موظفي الحكومة ، المدرسين ، الضباط ؛ فوجدت أن بعضهم قد تزوجوا بالفعل ، ويعيشون حياة مملة تافهة الى ابعد حد ، اما الآخرون ، فأغبياء لا لون لهم ، أو سيئوا السلوك. اما لابتيف فهو من أبناء موسكو ، وقد تخرج فى الجامعة ، ويتكلم باللغة الفرنسية ، ويعيش فى العاصمة حيث يوجد عدد كبير جدا من الناس الأذكياء المشهورين ، وحيث الحياة مرحة ، وحيث توجد كل انواع المسارح الرائعة ، والسهرات الموسيقية ، والخياطات الممتازات ، ومحال الحلوى .. الانجيل يقول يجب ان تحب الزوجة زوجها ، والروايات تسرف في تأكيد ذلك ، ولكن اليس من المحتمل أن يكون ذلك نوعا من المبالغة . الا يمكن ان يقوم زواج دون حب ؟ الا يقول الناس ان الحب سرعان ما يختفي ولا تبقى سوى السعادة ؛ وان هدف الزواج ليس الحب ، ولا السعادة ، ولكنه الواجب ، كتربية الأطفال ، وادارة البيت ، ونحو ذلك ، بل لعل الحب الذى ذكره الانجيل يقصد به الاحترام ، والصبر ، وحب الزوج كما يحب الانسان جاره .

وقبل ان تذهب يوليا الى فرشها قرات صلواتها المسائية بعناية ، وركعت وهى تضغط بكفيها على صدرها وتحدق فى لهب الشمعة المشتعلة تحت الأيقونة ، وابتهلت قائلة :

ـ « ساعديني أيتها الأم المقدسة ! ساعديني ! آه يارب ! » .

وأخذت تتذكر كل العوانس المتقدمات فى السن اللائى التقت بهن ، مخلوقات تعسة يائسة يتحسرن بمرارة لأنهن رفضن عروضا للزواج ، الا يمكن أن تلاقى نفس المصير ؟ وربما كان من الأفضل أن تدخل ديرا للراهبات او تصبح من اخوات الرحمة ؟

خلعت ملابسها واستلقت في سريرها ، ورسمت علامة الصليب في الهواء المحيط بها . وفي نفس اللحظة ارتفع صوت الجرس عاليا فى الصالة .

أحست برجفة مؤلمة تنتابها من اثر الصوت ، وقالت : « ياالله ! » وظلت مستلقية بلا حراك ، تفكر في مدى سخف حياة الأقاليم وكآبتها والى أى حد هى مرهقة للأعصاب مع ذلك . دائما اما ان تتعرض للألم ، او الفزع ، أو تفقد أعصابك ، او تشعر بالذنب بسبب ما ، وفى النهاية تتمزق أعصابك حتى لتجد نفسك احيانا مضطرا الى الاختباء تحت اغطية السرير .



بعد نصف ساعة دق الجرس مرة أخرى بصوت مرتفع وبلا توقف كالمرة السابقة . لابد ان الخدم نائمون ولم يسمعوا . أضاءت يوليا سيرجيفنا الشمعة وارتدت ملابسها بسرعة ، وهى ترتعد ، وقد تملكها الغضب على الخدم ، ولكنها حين خرجت الى الصالة وجدت الخادمة تغلق الباب بالفعل وقالت :

« ظننته السيد ، فاذا بها دعوة من مريض » .

عادت يوليا سيرجيفنا الى حجرتها ، وأخذت من الدولاب مجموعة

من أوراق اللعب ، وقالت لنفسها انها لو خلطت الاوراق جيدا ثم قطعتها ، فاذا كانت الورقة السفلى حمراء ، فان ذلك سيكون معناه « نعم » ، اي انها يجب ان تتزوج لابتيف ، اما ان كانت سوداء ، فالاجابة يجب ان تكون « لا » ، وكانت الورقة السفلى في المجموعة هي العشرة السباتي الحمراء .

دفع هذا السكينة الى نفسها فاستغرقت في النوم ، ولكن في الصباح عاد الموقف يتأرجح من جديد بين « نعم » و « لا » . انها لو أرادت الآن لغيرت حياتها كلها . كانت مرهقة من التفكير في الأمر الى درجة قريبة من المرض . ولكن ما كادت الساعة تجاوز الحادية عشرة حتى ارتدت ملابسها وذهبت لزيارة نينا فيودروفنا . كانت تريد رؤية لابتيف . لعله يبدو في نظرها الآن افضل مما كان ، ولعلها كانت مخطئة في شانه .

مضت في طريقها ، تقاوم الريح ، وتقبض على قبعتها بكلتا يديها ، وقد ملأ التراب عينيها فاعجزها عن الرؤية .

حين دخل لابتيف الى حجرة شقيقته وفوجيء بوجود يوليـــا سرجيفنا ، ملاه من جديد ذلك الاحساس المرير بالاذلال الذي عرفه أمس . واذا كانت بعد ما حدث تستطيع أن تحضر لزيارة شقيقته بمثل هذه الخفة معرضة نفسها لمقابلته ، فمعنى ذلك انها لا تحس بوجوده ، أو تعتبره أقل شأنا من أن يثير فيها كراهية . ولكنه حين صافحها لاحظ وجهها الشاحب ، والتراب تحت عينيها ، وادرك من النظرة الحزينة المذنبة التي وجهتها اليه انها تعاني هي الأخرى .

لم تكن في حالة طيبة . وبعد زيارة قصيرة ، لم تستغرق أكثر من عشر دقائق ، نهضت واستأذنت . وقالت للابتيف وهي في طريقها للخروج :

« هل توصلني الى البيت يا الكسي فيودوروفيتش ؟ » .

سارا صامتين ، كل منهما يقبض على قبعته بيده ، وتأخر لابتيف خلفها بضع خطوات محاولا حمايتها من الريح . ولكنها حين تحول الى الشارع الجانبي خفت حدة الريح فسارا جنبا الى جنب .

وبدأت يوليا تقول :

« كنت قاسية معك امس ، سامحني » .

وكان صوتها يرتجف وكأنها توشك على البكاء . ومضت تقول :

ـ آه ، ما أشد تعاستي ! لم استطع النوم طوال الليل .

وقال لابتيف دون أن ينظر اليها :

ــ « حقا ! لقد نمت جيدا ، ولكن هذا لا يعنى انى سعيد . لقد تحطمت حياتي . ومنذ امس أحس وكأنى تسممت . اسوأ ما فى الأمر انتهى أمس ، واليوم اشعر انى لم اعد مقيدا ، وعلى ذلك استطيع ان اكلمك بصراحة . انا احبك اكثر من اختى ، واكثر من امى .. استطيع أن اعيش بدون اختى وبدون أمى ، ولكن بدونك تصبح حياتي بلا معنى ، ولا استطيع .. » .

وكالعادة ، خمن أهدافها . كان يدرك انها طلبت منه توصيلها للبيت لأنها تريد ان تواصل حديث الأمس وانها الآن تقوده الى بيتها ولكن ما الذى يمكن أن تضيفه لرفضها ! ماذا دبرت الآن ؟ احس من نظراتها ، وابتسامتها ، بل من الطريقة التى تحمل بهما راسها وكتفيها وهى تسير الى جانبه ، انها ما زالت لا تحبه . ماذا ، اذن ، يمكن ان تقول له ؟

كان الدكتور سيرجى يوريستش فى البيت .

وحين راى لابتيف قال وهو يخلط اسمه باسم العائلة :

« فيودور الكسيتش . تفضل ، مرحبا بك . أنا سعيد جدا لرؤيتك » .

لم يحدث ان رحب به الدكتور بمثل هذه الحرارة من قبل ، لذلك استنتج لابتيف انه قد علم بأمر طلب الزواج ، وضايقه ذلك . وها هو ذا يجلس فى حجرة استقبال الدكتور ، وهى حجرة غريبة ، ذات اثاث رث سقيم الذوق ، ورسوم رديئة ، تبدو رغم ضخامة مظلة مصباحها ومقاعدها الوثيرة اقرب للحظيرة الشاسعة منها الى حجرة الجلوس ، انها حجرة من طراز لا يمكن ان يشعر بالراحة فيه الا شخص من طراز الدكتور . اما الحجرة المجاورة لهما فتكاد تكون ضعفها فى الحجم ، ويسمونها الصالة ، وهى لا تحتوى الا على مقاعد مصفوفة الى جوار الحائط كما لو كانت فصلا فى مدرسة للرقص .

وبينما كان لابتيف جالسا هناك يحدث الطبيب عن شقيقته ، كان يشعر بالضيق لذلك الخاطر غير المريح وهو ان يوليا سيرجيفنا لم تحضر لزيارة شقيقته نينا ولم تحضره الى هنا الا لتخبره بانها غيرت رايها . وقال لنفسه ، آه ما افظع ذلك . ولكن الاسوا من ذلك معرفته بان مثل هذا الشك قد خطر بباله . تصور الاب وابنته جالسين في ساعة متاخرة من الليل يناقشان الامر باهتمام ، بل ويتجادلان حوله ، ثم يتفقان في النهاية على ان يوليا كانت حمقاء حين رفضت مثل ذلك الرجل الثرى . بل لقد كان باستطاعته ان يسمع الكلمات التى يقولها الآباء عادة في مثل هذه المناسبات .

« حقا ، انت لا تحبينه ، ولكن فـكرى في كل المزايا التى ستستطيعين تحقيقها » .

نهض الدكتور ليقوم بجولاته ، وكان لابتيف على وشك الذهاب معه ، ولكن يوليا سيرجيفنا قالت :

« ارجوك ، لا تذهب » .

لقد انهارت ، واكدت لنفسها بتماسة ان رفض رجل كريم مهذب يحبها لا لشيء الا لانه لا يعجبها ، وبخاصة اذا كان هذا الزواج سيتيح لها الفرصة لتغيير هذه الحياة السخيفة الكئيبة التي تحياها، وعدم جدوى وجودها ، في الوقت الذى بدأ فيه شبابها يولى والمستقبل لا يلوح بحياة افضل ، الرفض في مثل هذه الظروف جنون ، ونزوة حمقاء ، لابد ان الله سيعاقبها عليها .

حين اختفى وقع اقدام الدكتور ، التفتت يوليا فجاة الى لابتيف ووجهها شديد الشحوب ، وقالت في صوت حاسم :

ـ « الكسى فيودوريتش ، لقد فكرت في طلبك وقتا طويلا امس .. وقد قررت قبوله » .

انحنى لابتيف وقبل يدها ، وضغطت بشفتيها البـاردتين بلا

احساس على جبهته . كان يحس ان هذا الاعلان للحب ينقصه أهم شيء ـ حبها وان في الأمر كثيرا من الزيف البشع ، اراد ان يبكي ، ان يجري هاربا ، ان يرحل على الفور الى موسكو ، ولكنها كانت واقفة هناك قريبة منه جدا ، حتى لقد غلبته العاطفة على أمره فجأة ، وتنبه الى أنه قد فات أوان التفكير الآن ، فضمها اليه ، وهو يتمتم بكلمات الحب وقبل عنقها ، ثم وجنتها وشعرها .

ابتعدت يوليا ناحية النافذة ، وقد نبهتها هذه القبلات ، وكان كل منهما قد بدأ يندم على ما قاله ويسأل نفسه في حيرة : « لماذا حدث هذا ؟ » .

وقالت يوليا وقد شبكت يديها في يأس :

ـ « فقط لو علمت كم انا تعسة ! » .

قالها وهو يقترب منها وقد شبك يديه هو الآخر :

ـ ولكن لماذا ؟ ما سبب ذلك يا عزيزتي ، بالله عليك اخبريني بالحقيقة ، اتوسل اليك ، لا شيء غير الحقيقة ؟ » .

اجابت وهي تغتصب ابتسامة :

ـ « لا شيء ، أعدك ان اكون لك زوجة مخلصة وفية . تعال هذا المساء ارجوك »



حين جلس فيما بعد مع شقيقته يقرأ لها رواية تاريخية ، تذكر ما حدث وآلمه أن يستجيب لعاطفته بمثل هذا الأسلوب الرخيص ، انها لا تحبه ، ومع ذلك لقد وافقت على الزواج منه ـ لا شك انها قبلت بسبب ثرائه ، فضلت فيه اقل ما يقدره من نفسه ، ومن المحتمل وهي الفتاة الصغيرة الطاهرة المؤمنة بالله ، ان ماله لم يخطر ببالها بالمرة ، ولكنها مع ذلك لا تحبه ، لا تحبه ، ومن هنا لابد أن لديها سببا عمليا ـ ربما كان غامضا وغير محدد ، ولكنه سبب عملي

رغم ذلك – للرغبة فى الزواج به . ان ادعاء الطبقة المتوسطة الواضح فى بيت الدكتور ، والدكتور نفسه ، أنه وضيع ، وهو بحماقته اللزجة أشبه ما يكون بشخصية « جاسبر » فى رواية « اجراس كورنفيل » كل ذلك يثير اشمئزازه ، بل ان اسم يوليا نفسه يبدو الآن سوقيا فى اذنه . سوف يقفان أمام مذبح الكنيسة ، وكل منهما غريب تماما عن الآخر ، وهى خالية من اى عاطفة نحوه ، وكان الزواج من تدبير خاطئة .

أن عزاءه الوحيد الآن ، وهو امر عادى كالزواج نفسه ، ان آلاف الناس صنعوا نفس الشيء ، وان يوليا مع الوقت ، وحين تألفه أكثر ، فمن المحتمل ان تستطيع ان تحبه .

وقال وهو يغلق الكتاب ضاحكا :

– « روميو وجولييت ! نينا . انا روميو . بوسعك ان تهنئيني . لقد خطبت يوليا سيرجيفنا اليوم » .

ظنته نينا فيودروفنا يمزح ، ولكنها حينما رات انه جاد شرعت فى البكاء . لقد ازعجها الخبر . قالت :

– « اظن انني يجب أن اهنئك . ولكن اليس الأمر مفاجئا ؟

– لا ، ليس مفاجئا . لقد بدأ منذ مارس ، كل ما فى الامر انك لم تلاحظى شيئا .. لقد احببتها فى مارس حين رايتها هنا فى حجرتك .

وقالت نينا فيودروفنا بعد قليل :

– « ظننتك ستتزوج فتاة من موسكو . فتاة من بيئتنا ، فستكون أكثر بساطة . ولكن سعادتك هى التى تهم يا الكسى . ان زوجى جريجورى نيكولافيتش لم يحبنى ابدا ، وبوسعك ان ترى بنفسك كيف نعيش . اما أنت فاى امرأة تستطيع أن تحبك ، فانت كريم وماهر ، ولكن يوليا سيدة محترمة ، لقد تعلمت فى مدرسة

عامة ، ولكن الطيبة والذكاء لا يكفيان وحدهما . انها صغيرة ، وانت لم تعد في مثل شبابها يا اليوشا ، كما انك لست وسيما » .

ولكي تخفف من وقع الكلمات الأخيرة ربتت على خده وقالت :

ــ « لست وسيما ، ولكنك طيب جدا » .

واشتد انفعالها الى درجة دفعت حمرة خفيفة الى وجنتيها . هل من الصواب ان تبارك اليوشا ؟ على كل حال ، هي شقيقته الكبرى ، وهي تحتل مكان والدته . حاولت ان تقنع اخاها الحزين ان الزفاف ينبغي ان يكون رائعـــــا ، وفي حفل مرح يقرن اسمه بالتوقير .



بدأ لابتيف يزور اسرة بيلافين ، باعتباره عريس المستقبل ، ثلاث او اربع مرات كل يوم ، حتى لم يعد لديه وقت يريح فيه ساشا من قراءة الروايات التاريخيـــــة لأمهـــــا . وكانت يوليا تستقبله في حجرتيها الخاصتين في مؤخرة البيت التي تبعد كثيرا جدا من حجرة الجلوس ومكتب ابيها . وكان يحب هاتين الحجرتين ، يحب الحيطان الداكنة ، والأيقونات في الركن ، ورائحة العطور الثمينة وزيت مصباح الايقونة . كان ثمة ستار يخفي سرير يوليا ومائدة زينتها ، وكانت ابواب صوان الكتب محددة بقماش أخضر ، والأرض مغطاة بأبسطة سميكة من الصعب ان يسمع صوت لوقع اقدامها عليها ــ وقد استدل من ذلك على انها ذات طبيعة متحفظة ، وانها ترغب في حياة هادئة مسالمة منعزلة .

وكانت لا تزال تعامل وكأنها مراهقة ، فليس لها نقود خاصة بها . وكثيرا ما حدث اثناء سيرها بالخارج أن تكتشف لخيبة املها انه ليس معها ولا كوبك واحد . كان أبوها يعطيها مبالغ صغيرة لشراء الملابس والكتب ، بحيث لا تتجاوز مائة روبل في العام . وكان هو

في عسر من امره بالرغم من عمله المعقول . كان يلعب الورق كل مساء في ناديه ويخسر بصفة مستمرة ، وفضلا عن ذلك كان يشتري المنازل عن طريق جمعيــة القروض المشتركة ، ويؤجرها لسكان لا يدفعون قيمة ايجارها بصفة منتظمة . وكان يصر ، رغم ذلك ، على ان الصفقة مربحة الى ابعد حد . والمنزل الذي يسكنه هو وابنته مرهون ، والنقود استغلها في شراء قطعة من الارض الخالية بدأ يبني عليها بالفعل منزلا من دورين بقصد رهنه هو الآخر .



ان لابتيف يعيش الآن غارقا في نوع من الضباب ، لكانه قد اصبح انسانا آخر ، ويعمل اشياء كثيرة ما كان من قبل يحلم بأن يعملها . فقد ذهب ثلاث مرات مع الدكتور الى ناديه ، حيث تعشى معه وقدم له نقودا لمشروعه الخاص بالبناء . ودعاه بانوروف ذات يوم على الغداء ، وقبل لابتيف دون تفكير . واستقبلته امرأة طويلة نحيلة في حوالى الخامســة والثلاثين من عمرها ذات شعر رمادى وحاجبين سوداوين ، ولم تكن تبدو روسية . كان وجههـــا مغطى بطبقة من المساحيق ، وابتسمت ابتسامة لزجة ، وصافحته بهزة من يدها جعلت السوار على ذراعها البيضاء يحدث صوتا ورنانا . وخطر للابتيف انها تبتسم بهذه الطريقة لأنها كانت تعسة وتريد ان تخفى هذه الحقيقة عن نفسها ومن الآخرين . ورأى فتاتين صغيرتين في الخـــامسـة والثالثة من عمريهما تشبهان ساشا .

كان الغداء يتكون من حساء اللبن ، ولحم بقري بارد بالكرات ، والحلوى شكولاته ، وكلها مسطحة بلا طعم ، ولكن المائدة كانت تلمع بالشوك الذهبية ، وزجاجتين انيقتين لعصير الطماطم والتوابل ، واناء صغير عليه رسم بديع ، ووعاء ذهبى للفلفل .

ولم يفطن لابتيف الى ان حضوره الى هنا ابعد ما يكون عن اللياقة

الا بعد ان انتهى من شرب حساء اللبن . كان من الواضح ان السيدة في غاية الحرج ، وكانت تبتسم بصفة مستمرة مظهـــرة اسنانها البيضاء ، فى حين كان بانوروف يقدم شرحا علميا للحب واصله . قال موجها حديثه الى زوجته باللغة الفرنسية :

« موضوع البحث هو ظاهرة كهربية خالصة . فجلد كل منا يحوى خلايا ميكروسكوبية تولد تيارا كهربيا . فاذا حدث وقابلت شخصا موازية مع تياراتك فالنتيجة هي الحب » .

وحين عاد لابتيف الى البيت وسألته شقيقته اين كان ، احس بالخجل ولم يحر جوابا .



طوال الأسابيع السابقة على الزفاف كان لابتيف مدركا لزيف موقفه . ان حبه يزداد يوما بعد يوم ، وهو يعتقد ان يوليا مخلوق شاعرى رائع ، ولكن تبقى مع ذلك هذه الحقيقة وهي انها لا تبادله حبه ، وانها تبيع نفسها له . وفي بعض الاحيان كانت هذه الفكرة تدفعه الى اليأس ، واكثر من مرة كان على وشك ان يترك الموضوع نهائيا . لم يعد يعد قادرا على النوم ، وكان يظل مستلقيا في سريره وهو مستيقظ طوال الليل ، يفكر . ماذا سيقول لتلك السيدة في موسكو التى يشير اليها في خطاباته الى اصدقائه بذلك « الشخص » حينما يقابلها بعد الزواج ؟ وماذا سيكون راى أبيه واخيه في زواجه من يوليا ، وهما من حيث صعوبة التفاهم معها ؟ كان يخشى ان يكون ابوه فظا في معاملته ليوليا في اول لقاء معها . اما بالنسبة لشقيقه فيودور ، فثمة شيء غريب يحدث له مؤخرا . انه يكتب خطابات طويلة عن اهمية الصحة الجيدة ، وتأثير المرض على العقل ، وعن جو الدين ، ولكنه لا يشير بكلمة الى موسكو او المؤسسة . وقـــد

ازعجت هذه الخطابات لابتيف ، وبدا له ان شخصية اخيه آخذة في التغير الى أسوأ .



تزوجا في سبتمبر في كنيسة بطرس وبولس بعد الصلاة ، وفي نفس اليوم رحل الزوجان الى موسكو . وحين ذهب لابتيف وزوجته التي لم تعد بعد فتاة صغيرة في ثوبها الأسود وملحقاته ، ليودعا نينا فيودروفنا ، انفعل وجه المرأة المريضة وان ظلت عيناها جافتين تماما وهي تقول :

« اذا مت فخذي الفتاتين الصغيرتين لتعيشا معك » .

واجابت يوليا سيرجيفنا وقد بدأت شـــفتاها تختلجان وكذلك جفناها :

« آه ، سأفعل ، اعدك بذلك » .

وقال لابتيف وهو في غاية التأثر .

« سأحضر لرؤيتك في أكتوبر ، من الله عليك بالشـــفاء يا أعز الناس » .

سافرا في مقصورة خاصة . وكلاهما كان يشـــعر بالتعاسة والقلق . جلســت في ركن ، وقبعتها فوق رأسها تتظاهر بالنعاس ، واستلقى هو على الوســادة في مواجهتها تدور في رأسه مجموعة من الافكار المزعجة : عن ابيه ، وعن « ذلك الشــخص » ، وعما اذا كان مسكنه في موسكو ســيعجب يوليا أو لا . ثم نظر الى زوجته التي لا تحبه ، وهو يقول لنفســه في يأس :

« لماذا حدث هذا ؟ » .

كانت اسرة لابتيف في موسكو تعمل في تجارة الاقمشة بالجملة ، وتتعامل في مختلف انواع الشرائط والمنسوجات واقطان اشغال الابرة ، والأزرار ، والبضائع المشابهة . وكانت مبيعاتهم تصل في السنة الى مليوني روبل ، اما مقدار صافي الارباح فلم يكن احد يعرفه باستثناء الرجل العجوز . وكان ابناه والبائعون يقدرونه بما يقرب من ثلاثمائة الف روبل ، ويقولون انه من الممكن ان يزيد مقدار مائة الف لو أن العجوز كف عن « تبذير المال ذات اليمين وذات اليسار » ، او بكلمات اخرى لو انه امتنع من البيع بالنسيئة بمثل هذا الاسراف . ففي خلال السنوات العشر الماضية تجمعت لدى المتجر ايصالات قيمتها مليون روبل اصبح الحصول عليها امرا ميئوسا منه ، وكلما اثير الموضوع كان رئيس الكتبة يطلق بدهاء ، وهو يغمز بعينه في خبث ، قائلا :

« النتائج النفسية لهذا القرن » .

كانت العمليات الرئيسية تتم في سوق المدينة ، فيما يطلقون عليه اسم المخزن ، تصل اليه عن طريق فناء كئيب تفوح منه رائحة الخيش ، ويتردد فيه وقع حوافر الجياد ، وثمة باب متواضع ملدم بالحديد يؤدي من الفناء الى حجرة ذات نافذة واحدة منحوتة ، وحوائط عليها بقع من فعل الرطوبة ، وتخطيطات بالفحم الاسود ، والى اليسار حجرة اخرى ، وهي المكتب ، وكانت اكبر وانظف ،

وفيها فرن حديدى ، ومائدتان ، ولكن نافذتها اشبه بطاقة السجن هى الأخرى . وفى هذه الحجرة سلم حجرى ضيق يؤدى الى الدور الأعلى حيث مقر العمل الرئيسى . وهذه الحجرة كانت متسعة فعلا ، ولكن الكآبة الغالبة عليها ، والسقف المنخفض ، واكوام العلب والحزم ، والناس الذين يسرعون فيها جيئة وذهابا ، كل ذلك جعلها تبدو مقبضة كحجرتي الدور الأرضى . كانت البضائع مكدسة على الأرفف فى حزم ولفافات وصناديق من الورق المقوى ، ولولا ان بعض قطع القطن القرمزى ، او شرابة ، أو قطعة شريط ، تطل من ثقوب لفافات الورق لما استطاع أن يخمن نوع البضائع التى تباع هنا .

وكان من الصعب أن تتصور ان ثروات تصنع من هذه اللفافات المهوشة والصناديق المكومة ، وان ما يقرب من خمسين شخصا ، باستثناء الزبائن ، يظلون مشغولين بامورها كل يوم .

حين حضر لابتيف الى المتجر ظهر اليوم التالى لعودته الى موسكو ، كان العمال يحزمون البضاعة ويحدثون ضجيجا بمطارقهم ، فلم يستطع أحد ممن فى حجرة الدور الأرضى او فى المكتب أن يحس بدخوله ، وكذلك لم يلتفت اليه رجل البريد الذى كان يهبط من الدور الأعلى حاملا حزمة من الرسائل وهو متجهم من الضجيج .

وكان اول من قابله فى الدور العلوى شقيقه فيودور الذى يشبهه الى درجة كبيرة حتى كان الكثيرون يعتقدون انهما توأمان . وكان هذا التشابه يذكر لابتيف بصفة مستمرة بحقيقة مظهره ، والآن حين راى ذلك الرجل الكئيب السوقى المظهر ، القصير القامة ، الأحمر الخدين ، ذى الشعر الخفيف والعجز الضيق المنخفض ، حين راى لابتيف ذلك سأل نفسه : « ترى هل أبدو هكذا حقا ؟ » .

قال فيودور وهو يقبل شقيقه ويضغط على يده :

— أنا سعيد برؤيتك . لقد ظللت انتظـــرك كل يوم يا صديقي العزيز . كان الفضول يقتلني منذ كتبت الى انك ستتزوج . وقـد افتقدتك كثيرا أيضا — لقد مضى الآن نصف عام منــذ رأيتك آخر مرة . حسنا ، ما الأخبار ؟ كيف حال نينا ؟ سيئة ؟ سيئة جدا ؟

— نعم ، سيئة جدا .

وقال فيودور وهو يتنهد :

— انها ارادة الله . والآن حدثني عن زوجتك . هي جميلة على ما أعتقد ؟ اني مغرم بها فعلا ، فهي شقيقتي الصغرى الآن . وسوف أساعدك في اعزازها .

ولمح لابتيف ذلك الظهر العريض المنحني ، ظهـــر ابيه فيودور ستبانيتش . كان الرجل جالسا على مقعد صغير أمام منصة البيع المنخفضة يتحدث الى زبون ، وصاح فيودور :

— « أبي ، انظـر ماذا ارسل الله الـكريم الينا . لقــد عاد الـكسي ! » .

كان فيودور ستبانيتش رجلا طويلا متين البنيان ، يبدو قويا في صحة جيدة بالرغم من سنواته الثمانين وما في وجهه من تجاعيد . وكان يتحدث بصوت غليظ عال يصدر من صدره العريض وكأنه صادر من برميل . كان حليقا الا من شارب عسكري صغير ، وكان يدخن السيجار . ولما كان يشعر بالحرارة بصفة مستمرة ، فهو يرتدي دائما ، وفي كل فصول السنة ، سترة مفتوحة من الكتان . ومنذ فترة قريبة اجرى عملية انفصال الشـــبكية في عينيه ، فضعف بصره ، ولم يعد يدير المتجر ، بل خصص نفسه للثرثرة مع الزبائن واحتساء الشاي مع المربى .

انحنى لابتيف وقبل يد أبيه ثم شفتيه . وقال العجوز :

— « مضى زمن طويل منذ رأيناك لآخر مرة يابني . زمن طويل

حقا . أظنك تريدني ان اهنئك على زواجك . حسن جدا ، انا اهنئك » .

ورفع راسه فانحنى لابتيف مرة أخرى وقبله . وسأل العجوز :

ــ « هل احضرت السيدة الشابة معك ؟ » .

ودون أن ينتظر الاجابة ، واصل حديثه وهو يلتفت الى الزبون :

ــ « ابى العزيز ، هذا لكى أحيطك علما بأنى تزوجت فلانة بنت فلان . ان احدا لا يحتاج اليوم الى نصيحة الأب العزيز ولا بركته . لقد اصبح الناس الآن فى منتهى الذكاء . حين تزوجت كنت قد جاوزت الاربعين ، ومع ذلك فقد ركعت على ركبتى أمام أبى وطلبت نصحه . الآن انتهى كل ذلك » .

كان العجوز سعيدا برؤية ولده ، ولكنه كان يحس أنه ليس من الصواب ان يبالغ فى تقدير قيمته ، أو يظهر سعادته بأى صورة من الصور . وكان لوقع صوته ، ولاسلوبه فى الحديث ، وقوله « السيدة الشابة » نفس الأثر المحزن الذى كانت تحدثه دائما فى لابتيف . كل شيء هنا يذكره بتلك الأيام التى كان يجلد فيها ويعيش على الخبز والماء ، وكان يعلم ان الصبية ما زالوا يجلدون ويضربون هنا ، وان هؤلاء الصبية انفسهم حين يكبرون سيسيئون معاملة الآخرين . يكفيه أن يبقى فى المخزن خمس دقائق ليشعر انه معرض فى أية لحظة للوم أو للضرب فوق اذنه .

وقال فيودور وهو يضرب الزبون على ظهره :

ــ « هاك يا اليوشا ، دعنى أقدمك الى وكيلنا فى تامبوف ، جريجورى تيموفيتش . انه نموذج للشباب الحديث : تجاوز الخمسين ، ووالد لأطفال صغار » .

وضحك كتبة المبيعات . وكذلك الزبون ، وهو عجوز نحيف

شاحب الوجه ، ضحك هو الآخر . وعلق رئيس الكتبة من خلف مكتب البيع :

« ظواهر الطبيعة الخارقة . كل ما يذهب مقدر له أن يعود » .

كان رئيس الكتبة رجلا طويلا في حوالى الخمسين من عمره ، ذا لحية داكنة ، ويرتدى نظارات ، ويضع قلما خلف اذنه ، وكان من عادته أن يعبر عن نفسه بأغمض التعبيرات وابعد التلميحات على الفهم ، ويبتسم بخبث ليؤكد دهاء تعليقاته . وكان مغرما باستخدام تعبيرات مدرسية يفسرها على هواه ليجعل معانيه غامضة غير مفهومة، بل كان يستخدم كلمات عادية بمعان غريبة ، كعبارة « بالاضافة الى ذلك » على سبيل المثال . فكلما قرر حقيقة مكونة من عدة فروع ، مد ذراعه اليمنى وقال « وبالاضافة الى ذلك ! » .

والمدهش في الأمر ان كتبة الحسابات الآخرين والزبائن ايضا ، كانوا يفهمونه بسهولة ، كان اسمه بوشتاكين ، وهو من اهل كاشيرا . وقد شرع يقول على سبيل تهنئة لابتيف :

ــ « لقد قمت بعمل مجيد من اعمال الشجاعة ، اما فيما يتعلق بقلب المرأة فهو مثل شاميل ! » .

وثمة شخصية اخرى هامة بالمخزن ، وهي ماكيتشميف ، وهو رجل قوى مكتنز الجسم ، تحيط براسه الاصلع خصلات من الشعر الاشقر ، وسالفان من الجانبين . وقد تقدم نحو لابتيف وقال في صوت خفيض يفيض بالاحترام :

ــ « يشرفني يا سيدى أن اهنئك .. لقد استجاب الله للدعوات والديك المبجلين . المجد لله يا سيدى » .

بعد ذلك تقدم بقية الكتبة واحدا اثر الآخر ، ليهنئوا السيد الشاب . وكانوا جميعا يرتدون ثيابا من احدث طراز ويبدون في غاية الاحترام وحسن التربية . كانوا يؤكدون نطقهم لواو المد ،

ولا يعطشون الجيم ، ولما كانت خطتهم القصيرة التي تفوهوا بها مليئة بحروف السين الهامسة بكثرة فقد بدت تهنئاتهم قريبة من ازيز سوط في الهواء .

وسرعان ما احس لابتيف بالضيق ورغب في العودة الى البيت ، ولكن كان عليه أن يبقى ساعتين على الاقل محافظة على المظاهر . غادر مكتب البيع ليحادث ماكيتشيف ، ويسأله عما اذا كانوا قد اجتازوا صيفا ناجحا ، وهل هناك اخبار جديدة ، وقد اجابه الأخير باحترام وهو خافض العينين . وقدم غلام قصير الشعر ، يرتدي قميصا ومادبا ، فنجان شاي دون طبق للابتيف ، وبعد قليل اصطدم صبي آخر بصندوق اثناء مروره وكاد يسقط ، وفي الحال التفت اليه ماكيتشيف الهادىء وقد اكفهر وجهه وصرخ فيه بعنف :

ــ « انظر اين تضع قدميك ! » .

كان صغار موظفي البيع سعداء لأن سيدهم الصغير قد تزوج وعاد الى المدينة ، وكانوا يرمقونه بحب واهتمام ، وكلما مر به واحد منهم حاول ان يقول شيئا سارا ومحترما في الوقت نفسه . ولكن لابتيف كان يعتقد أن كل ذلك غير مخلص ، وانهم يتملقونه لا لشيء الا لانهم يخافونه . ولم يكن باستطاعته أن ينسى كيف انتابت احد الموظفين منذ خمسة عشر عاما نوبة عصبية فجرى في الشارع بملابسه الداخلية ، وظل يهز قبضته نحو نوافذ اسياده ويسبهم . وحينما عاد الى صوابه ، وجد الجميع متعة خاصة في تذكيره كيف كان يصيح في أسياده ويسميهم « استغلاليين » بدلا عن استغلاليين .



كان اسلوب اسرة لابتيف في معاملة موظفيهم حديث السوق كلها منذ زمن بعيد ، واسوا ما فيها انه كان ثمة شيء آسيوي في معاملة ستيبانيتش العجوز لهم ، فاولا ، لم يكن احد يعلم كم يدفع لموظفيه

الأثيرين بوشتاكين وماكيتشيف ، وكانا يتقاضيان أكثر من ثلاثة آلاف في السنة بما في ذلك المكافآت التشجيعية ، ولكنه كان يدع الناس يعتقدون أنه يدفع لهما سبعة آلاف ، وكانت المكافآت توزع كل عام على جميع الموظفين ، ولكن بصفة سرية — حتى يقول كل موظف مدفوعا بالكرامة انه اخذ اكثر مما أعطى بالفعل ، ولم يكن المساعد يعرف متى يرقى ، وكذلك لا يعرف الكاتب ان كان السيد راضيا عنه أم لا .

لم يكن هناك شيء ممنوع صراحة ، ومن ثم فلم يكن أحد يعرف ما المسموح به بالضبط . فلم يكن الزواج محظورا عليهم ، ولكنهم لم يتزوجوا خشية ان يغضبوا سيدهم . وكان من المسموح ان يكون لهم اصدقاء ، وأن يخرجوا للزيارة ، ولكن البوابة كانت تغلق فى التاسعة ، وفي الصباح لكي يتأكد السيد من انهم لا يسكرون ، كان يستدعيهم واحدا واحدا ويأمرهم بأن يتنفسوا في وجهه .

وفي كل احتفال من احتفالات الكنيسة كان ينتظر منهم ان يذهبوا الى الصلاة المبكرة، ويقفوا فى الكنيسة حتى يراهم سيدهم . وفي عيد ميلاد السيد أو اى فرد من اسرته ، وفي المناسبات الأخرى ، كان ينتظر من الموظفين ان يكتتبوا معا ويقدموا كعكة أو البوم صور . كانوا يعيشون في الدور الأرضي فى طرف البيت بپياتنيتسكايا ، كل ثلاثة أو اربعة في حجرة ، ويأكلون معا في طبق مشترك ، بالرغم من وجود أطباق لكل منهم . ولو حدث وحضر واحد من اسيادهم وهم يأكلون كانوا يقفون جميعا .

وكان لابتيف يدرك منذ زمن بعيد أن أولئك الذين تشبعوا بتعاليم العجوز هم وحدهم الذين كانوا يعتبرونه حقا مصدر نعمتهم ، فى حين ان الباقين كانوا يعتبرونه عدوهم بلا شك .

وبعد ان غاب ستة اشهر لم يلحظ اى تغير الى افضل ، بل الواقع ان ثمة عنصرا جديدا لا يبشر بخير . فاخوه فيودور الذى كان من قبل هادئا مفكرا شديد المهارة ، اصبح الآن يسير منهمكا فى المحل واضعا قلما خلف اذنه ، وقد بدا عليه الانشغال الشديد ، يضرب الزبائن على ظهورهم وينادى الموظفين « يا اصدقاء » . كان من الواضح انه يؤدى دورا ، حتى لقد أصبح من الصعب على الكسى أن يتعرف عليه .

وكان صوت العجوز يفرقع بصفة مستمرة . ولما لم يكن لديه شىء افضل يفعله ، فقد كان يسلى نفسه بالقاء محاضرات على زبائنه كيف يعيشون وكيف يتصرفون فى شئونهم ، ويضع نفسه مثالا يحتذى . وقد ظل لابتيف يسمع هذه النغمة الفخور الصادرة عن النفوذ الواسع عشر سنوات ، بل خمس عشرة ، بل عشرين سنة . كان العجوز يعبد نفسه . وحين تنصت اليه تظن انه جعل زوجته الاخيرة ، واقرباءها غاية فى السعادة ، وانه اسعد ابناءه واحسن الى موظفيه ، وانه قدم بالفعل للشارع كله ، ولكل معارفه ما يدعوهم للاعتراف بفضله الى الابد . كل ما يصنعه جميل ، واذا لاقى الآخرون متاعب فى اعمالهم ، فما ذلك الا لانهم رفضوا الاخذ بنصائحه ، فلا شىء يمكن أن ينجح دون نصائحه . وفى الكنيسة كان دائما يقف امام الآخرين جميعا ، بل وكان يعنف القسس حين يعتقد انهم لا يوجهون الصلاة كما يجب ، وكان يؤمن بانه بذلك انما يخدم الله ما دام يتمتع برحمته .

حين ازفت الساعة الثانية كان كل من فى المتجر مشغولين ما عدا العجوز الذى استمر يفرقع بصوته . ولما كان لابتيف لا يريد ان يظل واقفا لا يفعل شيئا ، فقد تسلم بعض الاقمشة المزركشة من احدى

العانكات ، ثم استقبل زبونا ، وهو تاجر من فولوجدا ، وحوله الى احد البائعين .

كانت أصوات الحروف « ت . ف . أ ! » تملأ المتجر ، « فقدكانت الحروف تستخدم للدلالة على الأسعار وارقام البضـــــائع » ، « ر . ي ، ت أ » .

وقبل أن يغادر لابتيف المتجر لم يودع سوى فيودور ، وقال له :

« ساحضر زوجتي غدا الى بياتنيتسكايا ، ولكني احذرك : لو قال أبي لها كلمة واحدة نابية فسوف أرحل على الفور » .

وتنهد فيودور وهو يقول :

ـ ما زلت كما انت . تزوجت ولكنك لم تتغير . يجب ان تداعب العجوز قليلا يا الكسي . حسن جدا ، سننتظرك غدا في حوالي الحادية عشرة . تعال عقب الصلاة مباشرة » .

ـ أنا لا أحضر الصلاة .

ـ لا بأس ، هذا لا يهم . اهم شيء الا تتأخر عن الحادية عشرة حتى يتسع الوقت امامنا للصلوات والغـــداء معا كذلك . ابلغ شقيقتي الصغيرة احتراماتي ، وقل لها اني اقبل يدها . انا اعلم اني سأحبها » ثم اضاف فيودور في اخلاص تام :

ـ « اني احسدك يا شقيقي ! » .

وسار خلف الكسي وهو يهبط السلم ، وبينما لابتيف يسير في شارع نيكولاسكايا قال لنفسه :

« لماذا ظل يتلوى هكذا وكأنه عار ؟ » كان حائرا بشأن التغير الذي طرأ على فيودور فمضى يقول لنفسه :

« وما أغرب حديثه : « اخي ، أخي العزيز ، الله رحيم ، صل لله » . وكأنه بوذا في قصة ششدرين » .

- ٦ -

فى الحادية عشرة من صباح اليوم التالى ، وكان يوم أحد ، اخذ لابتيف وزوجته عربة خفيفة فى طريقهما الى شارع بيانتيتسكايا . لم يكن يفكر فى الزيارة المقبلة ، لانه كان خائفا مما يمكن ان يفعله فيودورستبانيتش . وكانت يوليا سيرجيفنا ، بعد ليلتين ، فى بيت زوجها ، قد اعتبرت زواجها خطأ ، بل مصيبة ، ولو انها كانت مضطرة الى الحياة فى اى مدينة أخرى غير موسكو لما كان باستطاعتها احتماله ابدا . لقد سحرتها موسكو ، كانت تحب الشوارع والبيوت والكنائس ، ولو كان باستطاعتها ان تركب واحدة من تلك الزحافات التى تجرها خيول أصيلة وتظل فيها من الصباح حتى المساء ، تستنشق هواء الخريف البارد ، لكان من المحتمل الا تشعر بالتعاسة هكذا .

جذب الحوذى لجام الحصان بجانب منزل ابيض حديث الطلاء ، مكون من دورين ، ثم دار الى اليمين الى داخل الفناء ؛ كان من الواضح انهم ينتظرونهما ، لان رجلين من رجال البوليس ، والبواب وقد ارتدى ثوبا جديدا وحذاء عاليا تغطيه قطعة من الجوخ ، كانوا يقفون امام البوابة ، وكان الشارع أمام المنزل والفناء مرشوشين بالرمال حتى مدخل البيت . ورفع البواب قبعته ، وادى رجلا البوليس تحية عسكرية . واستقبل فيودور الزوجين أمام الباب بوجه جاد الى ابعد حد ، قال وهو يقبل يد يوليا :

ــ « انا في غاية السعادة بمقابلتك أيتها الشقية الصغيرة ، مرحبا بك في بيتنا » .

وقادهما على درجات السلم الى أعلى ، ثم خلال الممر المزدحم ، وكان البهو هو الآخر مزدحما بالناس وتتصاعد منه رائحة البخور .

وهمس فيودور قائلا وسط الصمت الوقور :

ــ « سأقدمك الآن الى ابينا ، انه رجل عجوز وقور ، راس العائلة » .

كان فيودور ستيبانيتش واقفا في الردهة الكبيرة امام مائدة معدة للصلاة . والى جواره القس في زيه الرسمي الخاص بالاحتفالات . وقدم العجوز يده ليوليا دون أن يتفوه بكلمة . وخيم الصمت على الجميع في حين شعرت يوليا بالارتباك .

وارتدى القس والشماس ملابسهما الكهنوتية . واحضرت المبخرة يتطاير منها الشرر وتنبعث منها رائحة البخور والفحم . واضيئت الشموع . ودخل الموظفون الى الصالة على أطراف أصابعهم ووقفوا في صفين أمام الحائط . وساد الهدوء التام فلم تعد تسمع تامة :

ــ « امنحنا بركاتك يارب ! » .

وجرت مراسم الاحتفال بكل وقار ، دون أن يحذف منها شيء ؛ ثم قرىء ترتيلان ، الاول من المسيح ، والآخر من الأم المقدسة . وغنى منشدو جوقة الكنيسة وفي أيديهم اوراق عليها النغمات الموسيقية واطالوا الغناء كثيرا . ولاحظ لابتيف ارتباك زوجته ، وبينما كان الترتيلان يقرآن ، والجوقة تنشد « امنحنا بركاتك يارب » ثلاث مرات بكل النغمات الموسيقية ، ظل ينتظر في توتر ، وهو يتوقع أن يستدير العجوز في اية لحظة ويبدى ملاحظة ما ، كأن يقول : « انت لا تعرف كيف ترسم علامة الصليب » . كان وجود كل هؤلاء الناس ، والاحتفال كله بما فيه من القسس وافراد الجوقة ، يبدو

كريها فى نظره . كان ثقيلا وعتيقا الى ابعد حد ، ولكنه حينما رأى يوليا تحنى رأسها تحت الانجيل مع الرجل العجوز وتركع عدة مرات ، ادرك ان كل ذلك يعجبها ، وشعر بشىء من التحسن .

وقرب نهاية الاحتفال وبينما هم يغنون « حياة طويلة » ، قدم القس الصليب للعجوز ولالكسى كى يقبلاه ، ولكن حينما اقتربت يوليا سيرجفنا غطى القس الصليب بيده واشار الى انه يريد ان يتكلم . فلوح احدهم بيده لجوقة كى تصمت . وبدأ القس يقول :

ـ « جاء النبى صموئيل الى بيت لحم تنفيذا لأمر الرب . وارتعد شيوخ المدينة لمقدمه وقالوا : « هل جئت مسالما ؟ » فاجاب :

« جئت مسالما لأضحى من اجل الله ، فطهروا انفسكم وتعالوا معى وضحوا » . فهل جئت انت يا خادمة الرب يوليا الى بيتك بسلام ؟ » .

احمر وجه يوليا من العاطفة . وحين انتهى القس قدم لهما الصليب لتقبله ، وقال بلهجة مختلفة تماما :

ـ والآن حان الوقت كى يتزوج فيودور فيودوريتش ، وبسرعة » .

وبدأت الجوقة تنشد من جديد ، وانبعثت الحياة فى الجمع المحتشد ، فصدرت من الصالة ضجيج وحركة . وقبل العجوز يوليا ثلاث مرات ودموع الانفعال تملأ عينيه ، ثم رسم علامة الصليب على وجهها وقال :

ـ هذا بيتك . انا رجل عجوز ، ولم أعد فى حاجة الى شىء » .

وتقدم الموظفون بتهنئاتهم التى ضاعت وسط ضجيج الجوقة . وقدم الغداء ومعه الشمبانيا .

جلست يوليا بجوار العجوز الذى قال لها انه لا خير فى ان يعيشوا منفصلين ، وانهم يجب أن يعيشوا معا فى بيت واحد ، لأن الانقسام والاختلاف دائما يؤديان الى الخراب ، واضاف :

ــ لقد صنعت ثروة واولادى ينفقونها . والآن يجب ان تعيشى هنا فى هذا البيت وتساعدينى . فأنا عجوز ، وقد آن لى أن استريح » .

ان فيودور شديد الشبه بزوجها ، ولكنه اكثر منه عصبية وخجلا ، وقد ظل يحوم حولها طوال الوقت وقبل يديها عدة مرات . وقال وقد برزت فى وجهه بقع حمراء :

ــ « اننا قوم بسطاء يا اختى الصغيرة ، نحيا حياة بسيطة ، مثل الروسيين البسطاء ، مثل المسيحيين » .



فى طريق العودة الى البيت ، كان لابتيف يحس براحة كبيرة لان كل شىء قد مر بسلام ولان مخاوفه لم يكن لها اساس ، وقال لزوجته :

« قد تعجبين لأن رجلا ضخما قويا كأبى أنجب ابنين هزيلين مثلى انا وفيودور . ومع ذلك فالتفسير غاية فى البساطة ! لقد تزوج ابى والدتى وهو فى الخامسة والأربعين ولم تكن هى قد جاوزت السابعة عشرة وكانت تفزع منه . وقد ولدت نينا اولا حين كانت صحة امى لا تزال جيدة نسبيا ، ولهذا السبب كانت دائما أقوى واحسن صحة منا . اما أنا وفيودور فقد حملتنا امنا وولدتنا بعد ان كان الفزع المستمر قد انهكها تماما . انى اذكر كيف بدأ ابى يعلمنى او بتعبير ادق يضربنى حين لم اكن قد بلغت الخامسة من عمرى . كان يجلدنى ، ويشد اذنى ، ويضربنى بقبعته على راسى ، وكانت اول فكرة تخطر ببالى كل صباح هى هل سيضربنى ابى اليوم ام لا . لم يكن مسموحا لى ولا لفيودور باللعب او الجرى هنا وهناك ، بل كان علينا ان نذهب مبكرين كل صباح لحضور الصلاة وتقبيل ايدى القسس والرهبان ، وقراءة التراتيل . انت متدينة وتحبين ذلك

كله ، ولكني اخشى ان اكون انا قد بعدت عن الدين . وكلما مررت بكنيسة تذكرت طفولتي وملأني الفزع . وحين بلغت الثامنة اخذني للعمل في المخزن كصبي صغير عادي ، وكان ذلك امرا سيئا بالنسبة لي ، لأنهم كانوا يضربونني كل يوم تقريبا ، وبعد ذلك ، حين أرسلت للمدرسة ، كانوا يعطونني دروسا حتى موعد الغداء ، واقضي بقية اليوم في ذلك المخزن . واستمر ذلك حتى بلغت الثانية والعشرين ، حين ذهبت الى الجامعة وقابلت بارتسيف الذي اقنعني بترك البيت . وفي رأيي أن بارتسيف قد افادني كثيرا » .

قال لابتيف ذلك وهو يضحك في سعادة ، ثم أضاف :

« هيا بنا نزوره الآن . انه واحد من اروع الاشخاص الذين اعرفهم ! وسيسره أن يرانا ! » .

ذات يوم سبت من شهر نوفمبر قاد انطـــون روبنشتين حفلة سيفمونية ، وكانت الصالة شديدة الازدحام وخانقة ، وكان لابتيف يقف خلف الاعمدة ، فى حين كانت زوجتـــه وكوستيا كوتشيفوا يجلسان بعيدا الى الامام فى الصف الثالث أو الرابع . وكان العزف قد بدأ لتوه حين لمح ذلك الشخص « : بولينا نيكولاييفنا . منـــذ زواجه وهو يخشى مغبة لقائها . والآن ، حين التقت نظرتها الصافية المباشرة بنظرته ، تذكر انه حتى لم يكتب لها ولو كلمة قصيرة ودودة يشرح فيها الامر ، فاحمر وجهه خجلا . صافحته بيد ثابتة قوية ثم سألته :

— « هل رأيت بارتسيف ؟ » .

وقبل أن تتيح له فرصة للاجابة ، أسرعت بخطوات عجلة واسعة وكأن احدا يدفعها من الخلف .

كانت نحيلة وبسيطة الى ابعد حد ، انفها طويل ، وعلى وجههــا نظرة اعياء حتى لتبدو وكأنها تتكلف جهـــدا كبـــيرا لتبقى عينيها مفتوحتين وتظل واقفة على قدميها . وكانت عيناها داكنتين رائعتين تضفيان عليها مظهر الطيبة والذكاء ، ولكن حركاتها كانت حادة ومفاجئة . وكان من الصعب أن تتحدث اليها لانها مستمعة سيئة ، كما انها لا تستطيع التحدث بهدوء . ومن العسير ان تحبها . كانت تغطى وجهها بيديها وتضحك مدة طويلة ، ثم تعلن أن الحب ليس

أهم شيء في الحياة ، ومثل فتاة في السابعة عشرة كانت تطلب منه اطفاء الشموع كلها قبل أن يقبلها . لقـــــد جاوزت الثلاثين بالفعل . وكانت متزوجة من مدرس ، ولكنها انفصلت عن زوجها منذ سنوات عديدة . وهي تكـسب نفقات حياتها باعطـــاء دروس في الموسيقى ، والعزف مع بعض الفرق الموسيقية الرباعية .

وحين كانوا يعزفون السيمفونية التاسعة مرت به كما لو كان الامر مصادفة ، ولكنها لم تستطع ان تخترق الجمع الواقف خلف الأعمدة ولاحظ لابتيف انها ترتدى نفس السترة المخملية التي ظلت ترتديها في الحفلات الموسيقية خلال الموسمين المـاضيين ، وكانت ترتدى قفازا جديدا ، وتمسك بمروحة جديدة أيضا ، ولكنها رخيصة كانت تحب ان ترتدى ثيابا جميلة ، ولكنها لم تكن موهوبة في هذا المجال كما كانت تبخل بالنقود على شراء الملابس ، فترتب على ذلك انها ترتدى ملابسها بلا عناية ، وكان من يراها في الشارع مسرعة لاعطاء دروسها بخطواتها الطويلة المهملة ، يظنها شماسا صغيرا .

صفق الجمهور وطالب بالاعادة ، وقالت يوليا نيكولاييفنا وهي تتقدم نحو لابتيف وترمقه بنظرة صارمة :

ـ « ستقضي الليلة معي . سنخرج من هنا ونتناول الشاى معا . اسمعتنى ؟ انا مصرة . انت مدين لى بالكثير ، وليس لديك حق أدبى يجعلك ترفض لى هذا الطلب التافه » .

ووافق لابتيف قائلا :

ـ « لا مانع » .

بعد ان انتهت السيمفونية فتحت الستار واغلقت عدة مرات . ولم يكن الجمهور متعجلا وهو يغادر الصالة ، ولكن لابتيف لم يكن باستطاعته الذهاب دون ان يقول كلمة واحدة لزوجته . ولذلك فقد كان عليه أو يظل واقفا ينتظر عند الأبواب .

وقالت راسوديتا شاكية :

ـ « سأموت من اجل فنجان من الشاى . النار مشتعلة في روحي » .

واجاب لابتيف :

ـ « بوسعنا ان نتناول الشاى هنا . هيا بنا الى مشرب المرطبات

ـ لا استطيع ان ابذر النقود بمثل هذه البساطة . لست تاجرا ثريا .

قدم لها ذراعه ، ولكنها رفضت متعللة بنفس الشرح المضجر الذي سمعه منها مرات عديدة من قبل عن انها لا تعتبر نفسها فردا من الجنس الأضعف ، ولذلك فهي ليست بحاجة الى الاعتماد على اى رجل .

وبينما كانت تتحدث ظلت ترقب الجمهـــور بعينيها وتبادلت التحيات عدة مرات مع معارفها ـ وهم في الأغلب زملاء في الدراسة في برامج « جوريه » الموسيقية وفى الكونـــرفتوار ، ومن بينهم بعض تلاميذها كذلك . كانت تصافحهم على طريقتهـــا السريعة المهتزة ، ولكنها ما لبثت بعد ذلك ان بدأت ترتعد وكأنها اصيبت بالحمى .

واخيرا بدأت تتمتم قائلة وهي تحدجه بنظرات هلعة :

ـ « من هذه التي تزوجتها ؟ أين كانت عيناك يا أحمق ؟ ماذا رأيت في هذه المخلوقة الغبية الخـــاوية ؟ لقد أحببتك لعقلك ، لروحك ، ولكن هذه اللعبة الخزفية لا تريد سوى نقودك ! » .

وتوسل اليها قائلا :

ـ « لا داعى لهذا يا بولينا ارجوك ، كل ما بوسعك ان تقوليه عن زواجى قلته لنفسى مرات عديدة . لا تسببى لى ألما لا داعى له ، ارجوك » .

ظهرت يوليا سيرجيفنا في رداء أسود تزينه جوهرة كبيرة من اللؤلؤ أرسلها اليها حموها عقب الاحتفال . وكان يتبعها مرافقوها ـ كوستيا ، وطبيبان صديقان وضابط ورجل متين البنيان فى ملابس الطلاب ، واسمه « كيش » ..

وقال لابتيف لزوجته :

ـ « سيصحبك كوستيا الى البيت ، وساحضر أنا فيما بعد » ..

هزت يوليا راسها ومضت في طريقهما ، وارلصدت بولينا نيكولايفنا بعصبية وهي تتابعها بعينيها المليئتين بالازدراء والحقد والالم ..

كان لابتيف غير راغب في الذهاب الى بيتها ، لانه توقع مشهدا حزينا ، دموعا وكلمات عنيفة ، لذلك فقد أقترح بدلا من ذلك ـ ان يذهبا الى مطعم .

ولكنها أستحثته قائلة :

ـ « لا ، لا ، هيا بنا الى بيتي . اتجرؤ على ذكر المطاعم أمامي ؟ » .

كانت لا تحب المطاعم ، لانها تعتقد ان هواءها مسمم بالدخان وانفاس الرجال . فقد كانت متحيزة بطريقة غريبة ضد جميع الرجال الذين لا تعرفهم ، وتعتبرهم جميعا محترفي غزل من الممكن ان يعتدوا عليها عند أقل اثارة . وفضلا عن ذلك فقد كانت موسيقى المطاعم تسبب لها صداعا .

وصلا الى نادي النبلاء ، واستأجرا عربة من أمامه ، وظل لابتيف يفكر فيها والعربة تمضي بهما الى أوسترهنكا ، وتدور متجهة نحو شارع سافيولوفسكي حيث تسكن راسوديثا . انها محقة ، فهو مدين لها بالكثير . لقد التقى بها في منزل صديقه يارتسيف ، وكانت تعطيه دروسا في النظرية الموسيقية . وكان حبها له أصيلا خاليا

من كل اثر للأنانية ، وحتى بعد أن بدآ يعيشان معا واصلت اعطاء الدروس والعمل الى حد الانهاك كما كانت تفعل من قبل . وكانت هي التى علمته فهم الموسيقى وحبها .

قالت راسوديثا بصوتها العميق وهي تغطي فمها بفراء يديها حتى لا تصاب بالبرد :

ـ « مملكتى كلها مقابل فنجان من الشاى ! لقد اعطيت اليوم خمسة دروس ، عليهم اللعنة ! تلاميذى شديدو الغباء والعمق ، حتى كدت أموت من الكمد . لست ادري متى ستنتهى هذه العبودية . بمجرد ان أوفر ثلاثمائة روبل ساهجر كل شيء وارحل الى القرم ، حيث استلقى على الشاطىء واعب الأوكسجين عبا . لكم احب البحر ! » .

وقال لايتيف :

ـ « لن تذهبى الى اي مكان ، اولا لانك لن توفري شيئا ، وثانيا لانك ستبخلين بالنقود . ارجو ان تعذريني ، ولكننى يجب ان اقول هذا مرة اخرى : أحقا ان جمع هذه الثلاثمائة روبل كوبك بكوبك من هؤلاء العاطلين الذين يتلقون دروسا منك بدافع الملل لا اكثر ، أقل اذلالا من اقتراض هذا المبلغ من اصدقائك ! » .

اجابت محنقة :

ـ « ليس لدى اصدقاء ! وارجوك لا تقل كلاما لا معنى له . انا انتمي للطبقة العاملة ، ولهذه الطبقة ميزة واحدة : وهي انها تعرف انها غير قابلة للافساد ، وان من حقها الا تقترض من التجار التعساء، ومن حقها ايضا أن تحتقر من تشاء . لا يا سيدى ، انت لا تستطيع شرائى ، فانا لست يونيا ! » .

لم يدفع لايتيف لسائق العربة أجرته ، فقد كان يعلم ان ذلك لابد أن يثير سيلا آخر من الكلمات التى سمعها مرات كثيرة قبل

ذلك ، وتركها تدفع الأجرة بنفسها .

كانت بولينا تستأجر حجرة صغيرة مفروشة من سيدة تملك شقة ، وكان الايجار يشمل الاقامة والطعام ، وكانت تملك معزفا كبيرا من طراز « بيكار » وضعته في مسكن بارتسيف في شارع بولشايا نيكيتسكايا ، وكانت تذهب الى هناك كل يوم لتتدرب عليه . وكانت الحجرة مؤثثة بعدد من المقاعد عليها اغطية فضفاضة، وسرير عليه ملاءات بيضاء رفيعة ، ونباتات في اصص تملكها صاحبة البيت ، وقد علقت على الجدران صور مطبوعة ، ولم يكن في الحجرة ما يوحي بأن ساكنتها امرأة ، فضلا عن انها طالبة سابقة . فلم يكن فيها مائدة زينة ، ولا كتب ، ولا حتى مكتب . وكان من الواضح انها تأوي الى فراشها بمجرد أن تعود من الخارج ، ثم تغادر البيت بمجرد أن تستيقظ من نومها في الصباح .

دخلت الطباخة بابريق الشاي الكبير . وصبت بولينا نيكولايفنا الشاي ، وهي ما زالت ترتعد ، لأن الحجرة باردة ، ثم بدأت تنقد المغنيات اللائي اشتركن في السيمفونية التاسعة . وارتخى جفناها من التعب . واحتست فنجانا من الشاي ، اتبعته بثان ، ثم ثالث ، ثم قالت :

ــ « اذن فقد تزوجت ، ولكن لا تخف ، فلن أموت من الهجر ، بل سأستطيع ان انتزعك من قلبي . ومع ذلك فانه يؤلمني بحدة أن أعلم انك سيء ككل الرجال ، وأن ما تحتاجه من المرأة ليس عقلها ، بل جسدها ، وجمالها ، وشبابها . . . الشباب ! » .

اعادت الكلمة بصوت صادر من انفها ، وكأنها تحاكم شخصا ما لتسخر منه ، وضحكت وهي تقول :

ــ « شباب ! انت في حاجة الى الطهر ! نعم انه الطهر ! » .

وانفجرت ضاحكة وهي تلقي بنفسها على ظهر مقعدها .

ـ « الطهر ! » .

وحينما كفت عن الضحك كانت عيناها مليئتين بالدموع .

سألته :

ـ « هل انت سعيد على الاقل ؟

ـ لا ..

ـ هل تحبك ؟ ..

ـ لا .. »

وقام لابتيف وقد بدا عليه الانزعاج الشديد والتعاسة ، واخذ يذرع ارض الحجرة ، وعاد يكرر قوله :

ـ « لا ، الحقيقة أني شديد التعاسة يا بولينا . ولكن ماذا افعل ؟ لقد ارتكبت خطأ جسيما ، ولم يعد من الممكن اصلاحه الآن . ولابد ان اتفلسف حوله . نعم ، لقد تزوجت دون حب ، وبحماقة ، بل وربما لأسباب تجارية ، ولكنها ليست الدافع الوحيد، والآن من الواضح أنها عرفت خطأها وهي تتعذب . باستطاعتي أن اري ذلك . طوال اليوم تخاف أن تبقى معي وحدها ولو لخمس دقائق ، وهكذا تبحث عن التسلية ، عن المجتمع ، فهي تشعر في صحبتي بالخوف والخجل من نفسها .

ـ ولكنها لا تخجل من اخذ نقودك ؟ » .

وصرخ لابتيف :

ـ هذا غباء يا بولينا ، انها تأخذ النقود مني لأن الامر يستوي بالنسبة اليها اذا كان معها نقود او لم يكن . انها امرأة طيبة طاهرة العقل . تزوجتني ببساطة لانها كانت تريد البعد عن ابيها ، هذا كل ما في الامر » .

وسألته راسودينا :

ـ « هل انت واثق بانها كانت تتزوجك لو لم تكن غنيا ؟ » .

واجابها لابتيف في تعاسة :

ـ « لست واثقا من شيء .. لا شيء .. ولا افهم اى شيء .. بالله عليك يا بولينا دعينا من هذا الموضوع .

ـ هل تحبها ؟

ـ بجنون .. !

وساد صمت طويل . احتست فنجانا رابعا من الشاي ، في حين اخذ لابتيف يذرع الحجرة مفكرا في زوجته ، لعلهـــــا الآن تتناول عشاءها في نادي الأطباء .

وسألته وهي تهز كتفيها في غير اكتراث :

ـ « ولكن هل من الممكن أن تحب دون ان تعرف السبب ؟ لا ، ليس هنا سوى انجذاب حيواني ! انت مأخوذ . لقد اعماك الجسد الجميل ، ذلك الطهر ! ابتعد عني ، فانت قذر ! اذهب اليها ! » .

اشارت الى الباب ، ثم اخذت تبعته والقت بها اليه . وضع معطفه في سكون وخرج ، ولكنها جرت خلفه وتعلقت بكتفه في تشنج وانخرطت في البكاء .

فقال وهو يحاول التخلص من قبضتها بلا جدوى :

« بولينا ، ارجوك ! لا داعي لهـــــــذا ! اتوسل اليك هــــدئى نفسك ! » .

اغلقت عينيها ، وشحب وجهها ، وتحول انفها الطويل الى لون باهت كئيب وكأنه انف جثة ، ولم يستطع لابتيف ان يفك اصابعها المتقلصة . فقد أغمى عليها . حملها برفق ووضعها فوق السرير وجلس بجوارها ما يقرب من عشر دقائق حتى استعادت رشدها . كانت يداها باردتين ، ونبضها يتردد ضعيفا وفي غير انتظام .

وقالت وهي تفتح عينيها :

ـ « عد الى بيتك ، هيا اذهب ، والا شرعت في البكاء مرة اخرى . يجب ان اسيطر على نفسي » .



تركها وذهب الى بيته بدلا من نادي الأطبـاء حيث ينتظره الآخرون . وطوال الطريق الى بيته ظل يسأل نفسه بمرارة لماذا لم يتزوج هذه المرأة التي أحبته حقا وكانت ذات يوم زوجته وصديقته . لقد كانت هي الشخص الوحيد الذي ارتبط به ، وفضلا عن ذلك ، اما كان من الممكن أن يكون شيئا رائعا وجديرا بالتقدير أن يهب السعادة والبيت والحياة الآمنة لمثل هذه المخلوقة الذكية المترفعة التي تعمل بجد وعزيمة ؟ وسأل نفسه : من يكون حتى يتطلع للجمال ، والشباب ، ولتلك السعادة البعيدة عن متناول يده ، والتي ، وكان الأمر عقوبة أو سخرية لاذعة ، قد جعلته في هذه الحالة الذهنية الكئيبة الحزينة منذ أكثر من ثلاثة اشهر ؟ لقد مضى زمن طويل منذ انتهى شهر العسل ، ورغم ما قد يكون في ذلك من مجافاة للعقل ، فانه حتى الآن لا يعرف حقيقة شخصية زوجته . انها تكتب خطابات من خمس صفحات لصديقاتها من زميلات المدرسة ولأبيها ، ويبدو انها تجد الكثير الذي تكتب عنه ، ولكنها معه لا تتحدث الا عن الجو ، أو انه قد حان وقت الغذاء أو العشاء . وحين يرقبها وهي تتلو صلواتها ، قبل أن تذهب الى فراشها ، وتقبل صلبانها الصغيرة وصورها المقدسة لا يملك نفسه من التفكير بحقد ، « لماذا تصلي ؟ » كان يعينها في عقله ويعين نفسه فيزعم انه حين ينام معها في الفـراش ويأخذها بين ذراعيه ، انما يأخذ ما اشتراه ودفع ثمنه ، ولكن ذلك كان يبدو فظيعا . لو انها فقط كانت امرأة قوية جسور آثمة لاختلف الأمر ، ولكنها كانت صغيرة جدا ، شديدة التقوى والرقة ، ولها عينان بريئتان الى ابعد حد !

وهي عروس كان تدينها يؤثر فيه ، أما الآن فهو يرى في هذه المجموعة من الأفكار والعقائد التقليدية مبدأ منيعا يخفي الحقيقة . لقد أصبحت حياته بالفعل عذابا خالصا . وحين تجلس زوجته الى جواره في المسرح وتتنهد أو تضحك من قلبها كان يؤلمه ان يرى انها تستطيع ان تمتع نفسها دون ان تقاسمه سعادتها . أما الشيء العجيب حقا فهو أنها استطاعت ان تتفاهم الى أبعد حد مع أصدقائه، وكانوا جميعا يعرفونها خير معرفة ، في حين ظل هو لا يعرف عنها شيئا ، ولا يملك سوى أن يتبلد ويعاني آلام الغيرة في صمت .



حين وصل لابتيف الى البيت ، ارتدى خفيه وسترة التدخين ، وجلس في حجرة مكتبه ليقرأ في رواية . ولم تكن زوجته قد عادت بعد . ولكن بعد حوالى نصف ساعة سمع رنين جرس الباب ، وسمع صوت « بيوتر » وهو يسرع ليفتح . كانت يوليا . دخلت حجرة الكتب في معطفها المصنوع من الفراء ، وقد احمرت وجنتاها من تأثير الصقيع .

وقالت لاهثة :

ـ « هناك حريق كبير في بريسنيا . السماء حمراء مشتعلة . وأريد ان اذهب الى هناك بالعربة مع كوستيا .

ـ اذهبي ، بكل سرور .

هدأت نفس لابتيف لرأى نضارة الصحة والفزع الطفولي في عينيها ، فظل يقرأ نصف ساعة اخرى ، ثم آوى الى الفراش .



وفي اليوم التالي ارسلت اليه بولينا نيكولايفنا في المخزن كتابين كانت قد أخذتهما منه ، وكل خطاباته وصوره . ومعها خطاب مغلق مكون من كلمة واحدة باللغة الايطالية : « كفى ! » .

— ٨ —

في أواخر أكتوبر ازدادت حالة نينا فيودروفنا سوءاً بشكل واضح فنقص وزنها بسرعة ، وطرأ تغير على ملامح وجهها . وبالرغم من الألم الممض كانت تتصور أنها في طريقها للشفاء ، وفي كل صباح كانت ترتدي ملابسها وكأنها في أتم صحة ، ثم تقضي بقية اليوم مستلقية في الفراش وقد ارتدت ملابسها كاملة . وقرب النهاية أصبحت شديدة الثرثرة . فكانت تستلقي على ظهرها تتحدث بصوت منخفض وهي تلهث من الاعياء . وجاء الموت فجأة .

كانت ليلة قمرية صافية ، وأهل المدينة يركبون الزحافات ويسيرون بها فوق الجليد الجديد ، وكان الضجيج مسموعا في الحجرة . وكانت نينا فيودروفنا مستلقية في سريرها ، وساشا ، التي لم يعد هناك الآن من يسري عنها ، جالسة بجوارها وقد غلبها النعاس .

وكانت نينا فيودروفنا تقول بصوتها الخافت :

— « لست أذكر اسم أسرته ، ولكن اسمه الأول كان ايفان ، ولقبه كوتشفوا . كان موظفا حكوميا ، ولكنه فقير جدا ، وسكير بصورة مخيفة ، أراح الله روحه . كان يزورنا بصفة منتظمة ، وكل شهر كنا نعطيه رطلا من السكر وكيسا من الشاي ، ونقودا أيضا في بعض الأحيان . ثم ، ذات يوم رائع ، شرب صديقنا كوتشفوا كمية أكثر قليلا ومات ، أحرق نفسه بالفودكا . وترك ابنا ، طفلا

صغيرا فى حوالى السابعة . يتيم صغير مسكين . فاخذناه وخبأناه فى المخزن الملحق بمساكن الموظفين ، وظل أبى ستة كاملة لا يعلم عنه شيئا . وحينما علم بامره لم يقل شيئا . وحينما بلغ كوستيا ، وهو الطفل اليتيم ، التاسعة من عمره - وكنت قد خطبت وقتذاك - اخذته الى كل المدارس الابتدائية . ولكن الجميع رفضوه . وبكى ، الطفل المسكين ، فقلت له : « لماذا تبكي ايهـــا الطفل الغبى ؟ » واخذته الى المدرسة الابتدائية فى رازجولاى ، وهناك ، شكرا لله ، قبلوه . وكل يوم كان على ذلك الصبى الصغير أن يسير الطريق الطويل من بياتنيتسكايا الى « رازجولاى » ومن رازجولاى الى بياتنيتسكايا . ودفع اليوشا مصاريف تعليمه . ومن حسن الحظ ان الطفل ذاكر دروسه بجد ونجح . وهو الآن محام فى موسكو ، وصديق لاليوشا ، ومتعلم مثله . انه لشيء جميل أن ناخذ صبيا مسكينا ونقـدم له المأوى . لابد انه الآن يذكرنا فى صلواته .. نعم .. » .

اخذ الصوت يخفت ويخفت ، وفترات الصمت تطول ، ثم بعد صمت قصير ، اذا بها تجلس فجأة وتقول :

— « اشعر أنى .. لست على ما يرام . فليرحمنى الله ! انى لا اقوى على التنفس ! » .

وادركت ساشا ان أمها ستموت بعد قليل ، وحينما رأت كيف تهدلت وجنتاها فجأة خمنت ان النهاية قريبة وفزعت ، واخذت تنتحب قائلة :

— « امى العزيزة ، لا تذهبى ! لا تذهبى !

— اسرعى الى المطبخ يا عزيزتى واطلبى من احـدهم أن يذهب لاحضار ابيك . انا اشعر بانى مريضة جدا ! » .

جرت ساشا فى كل الحجرات تنادى الخدم ، ولكنهم كانوا جميعا

بالخارج ماعدا شقيقتها الصغرى « ليدا » التى كانت نائمة على صندوق كبير فى حجرة الطعام دون وسادة ، وقد اوقفت ملابسها كاملة . واسرعت ساشا ، دون أن تتوقف لترتدى معطفها او غطاء حذائها ، الى الفناء ، ثم الى الشارع . وكانت الممرضة جالسة على مقعد خارج البوابة تراقب زحافات الجليد . وثمة فرقة موسيقية عسكرية كانت تعزف هناك عند النهر حيث حلبة الانزلاق على الجليد .

وصرخت ساشا وهى تنتحب :

« ايتها الممرضة ، ايتها الممرضة ، امى تموت . ويجب ان تحضر ابى حالا » .

صعدت الممرضة الى حجرة النوم ، والقت نظرة على المريضة ثم وضعت شمعة مشتعلة بين يديها . فى حين اخذت ساشا تجرى هنا وهناك فى هلع ، تتوسل الى شخص ما ، اى شخص ، ان يذهب ليحضر اباها ، ثم ارتدت معطفها وغلالتها ، وجرت مسرعة الى الخارج . كانت تسمع الخدم يقولون ان اباها له زوجة اخرى وابنتان اخريان تعيشان فى شارع بازارنيا . فجرت الى الشارع ، تبكى وتخجل من المارة ، وتتعثر فى حفر الجليد العميقة ، وترتعد من البرد .

مرت عربة فى الشارع ولكنها لم تستاجرها خشية ان ياخذها السائق الى خارج المدينة حيث يسرقها ويلقى بها فى المقبرة (فقد سمعت مرة الخدم يروون حادثة كهذه وهم يتناولون الشاى) . ظلت تسرع وتسرع ، وتلهث من الاعياء ، وتنتحب وهى ماضية فى طريقها . وحين وصلت الى شارع بازارينا توقفت لتسال امراة مارة اين يسكن السيد بانوروف . وبدات المراة تقدم لها وصفا تفصيليا ، ولكنها حين رات الطفلة لا تفهم شيئا مما تقوله ، قادتها

من يدها الى منزل من دور واحد .

كان الباب الخارجي مفتوحا ، فجرت ساشا مسرعة عبر صالة المدخل ، ثم خلال ممر وجدت نفسها بعده في حجرة دافئة مضاءة بنور قوى ، ورات اباها جالسا بجوار ابريق شاى كبير يتناول الشاى مع سيدة وفتاتين صغيرتين . ولكن ساشا كانت قد أصبحت الآن عاجزة عن الكلام ، ولم يكن باستطاعتها سوى أن تنتحب . وخمن بانوروف على الفور سبب مجيئها ، فسأل :

ـ « هل ماما ؟ هل هي في حالة سيئة ؟ اخبريني يا فتاة ، هل أمك في حالة سيئة ؟ » .

ونهض مسرعا وارسل يطلب عربة .

حين وصلا ، كانت نينا فيودروفنا جالسة في السرير محاطة بالوسائد وممسكة بشمعة في يدها . كان وجهها داكنا وعيناها مغلقتين بالفعل . وكانت حجرة النوم مليئة بالناس ـ الممرضة ، والطباخة ، وخادمة الردهة ، والأجير بروكوفي ، وعدة غرباء متجمعين عند باب الحجرة . وكانت الممرضة تهمس ببعض التعليمات ولكن أحدا لم يفهم ماتريد منهم عمله . والى جوار النافذة البعيدة عند نهاية الغرفة وقفت ليدا ، لم تستيقظ بعد تماما من نومها ، تحدق في أمها بعينين جامدتين .

أخذ بانوروف الشمعة من يد « نينا فيودروفنا » وطوح بها فوق مائدة الزينة ، وقد قطب وجهه في امتعاض .

وقال وكتفاه تهتزان :

« هذا فظيع ! » .

ثم أضاف برقة :

« نينا ، يجب ان تنامي . نامي ، يا عزيزتي » .

وحين وصل القس والدكتور سيرجي بوريستش ، كان الخدم

قد بداوا يرسمون علامات الصليب على صدورهم في تقـــوى ، ويتمتمون بالصلوات على روح سيدتهم .

وقال الدكتور في ذهول وهو يدخل الى حجرة الاستقبال :

ـ « هذا امر محزن جدا . كانت لا تزال صغيرة . لم تتجاوز الاربعين بعد » .

وكان من الممكن سماع صوت الفتاتين الصغيرتين تنتحبان بصورة تستثير الاشفاق . وجاء بانوروف شاحب الوجه ميلل العينين الى الطبيب ، وقال بصوت خافت واهن :

ـ « ياوجلي العزيز ، اصنع في معروفا واكتب برقية الى موسكو نيابة عني . فانا مرهق الى ابعد حد » .

واحضر الطبيب شيئا من الحبر ، وكتب برقية الى ابنته :

« توفيت بانوروفا في الساعة الثامنة مساء . اخبريهم ان منزل الزوج سيباع سدادا للديون ، الاعلان في التاسع ، والمزاد في الثاني عشر . لا تتخلفي » .

— ٩ —

كان لابتيف يسكن فى شارع جانبى متفرع من مالايا دميتروفكا ، غير بعيد من كنيسة سانت بيمين القديمة . وبالاضافة الى البيت الكبير الذى يواجه الشارع ، استأجر لابتيف جناحا من دورين فى الفناء لصديقه كوستيا كوتشيفوا ، وهو محام شاب يناديه جميع افراد اسرة لابتيف بـ « كوستيا » ببساطة منذ عرفوه وهو طفل . وكانت تسكن فى الجناح المقابل المشابه لجناح كوستيا اسرة فرنسية مكونة من زوج وزوجة وخمس بنات .

كان يوما باردا ، وقد ملأ الصقيع النوافذ . واستيقظ كوستيا فى الصباح ، وتناول خمس عشر قطرة من دواء ما ، وعلى وجهه نظرة قلقة ، ثم اخذ من صوان الكتب عمودين صغيرين من الحديد أدى بهما بعض التمرينات الرياضية . كان طويلا شديد النحافة له شارب بنى كث ، ولكن أكثر ما يلفت النظر فيه هو ساقاه الطويلتان بصورة غير عادية .

واندفع « بيوتر » وهو خادم فى أواسط العمر ، يرتدى سترة وسراويل من القطن وحذاء عاليا ، وأدخل الابريق الكبير وصنع الشاى وقال :

— « انه يوم بديع يا سيدى » .

— « ممكن يا صديقى ، ولكن المشكلة انك انت وانا ليس لدينا الكثير مما يسر » .

وصمد بيوتر تنهيدة مهذبة ، فسأله كوستيا :

ــ « ماذا عن الفتاتين الصغيرتين ؟

ــ « لم يحضر القس بعد . والكسى فيودوروفيتش يعطيهما درسا بنفسه » .

عثر كوستيا على جزء غير متجمد على زجاج النافذة ، فبدأ يجرب منظار الأوبرا المعظم ويصوبه نحو نوافذ المنزل الذى تسكن فيه الأسرة الفرنسية ، ثم ما لبث ان قال :

ــ « لا أستطيع ان ارى شيئا » .

في هذه الأثناء كان الكسي فيودروفيتش يعطي درسا في الخط لساشا وليدا . وكانا يقيمان في موسكو الآن ومنذ ستة اسابيع . يشغلان الطابق الأرضي من الجناح مع مربيتهما . وكان يحضر اليهما مدرس المدرسة العامة بالمدينة وقس ثلاث مرات في الأسبوع . ان ساشا تدرس الآن « العهد الجديد » ، في حين بدأت ليدا منذ قليل العهد القديم . وفي الدرس الأخير طلب القس من ليدا ان تذاكر النص حتي ابراهام .

قال لابتيف :

ــ « والآن ، لقد اصبح لآدم وحواء ابنان . اليس كذلك ؟ ما اسماهما ؟ هل تذكرين ؟ » .

حدقت ليدا ، بوجهها المقطب كالعادة ، الى المائدة ، وشفتيها تتحركان ، ونظرت اليها الفتاة الأكبر منها بقلق . وقال لابتيف :

ــ « أنت تعرفين جيدا . لا ترتبكي ، حسن ، ما اسم ابني آدم ؟ » .

وصمتت ليدا :

ــ « آبيل وهابيل » .

فصحح لها لابتيف :

ــ « قابيل وهابيل » .

وانحدرت دمعة كبيرة على خد ليدا وسقطت على الكتاب . وكانت ساشا هي الأخرى على وشك الانخراط في البكاء ، فخفضت عينيها واحمر وجهها . ولم يستطع لايتيف ان يتكلم من شدة الاشفاق . فنهض وأشعل سيجارة . وفي تلك اللحظة هبط كوستيا من الدور العلوي وفي يده جريدة . وقفت الفتـــاتان وحيتاه دون ان ينظرا اليه .

— « ارجوك ياكوستيا ، خذهما مع درسهما ، ارجوك . اخشى ان انخرط في البكاء انا أيضا ، فضلا من اني يجب ان اكون في المخزن قبل الغذاء » .

— لا مانع .. »

خرج الكسي فيودوريتش ، وجلس كوستيا أمام المائدة متجهم الوجه شديد الصرامة ، وقرب الانجيل اليه وقال :

— « والآن ، اين وصلتما ؟ »

وقالت ساشا :

— « انها تعرف الطوفان » .

— حقا ، حسنا ، لنتحدث عن الطــــوفان . لننته من امر الطوفان » .

اجرى كوستيا عينيه على الوصف الموجز للطوفان في الكتاب ، ثم قال :

— يجب ان اقول لكما مع ذلك ، أنه لم يكن هناك طوفان كذلك الموصوف هنا . ولم يكن هناك نوح ايضـــا . فقبل مولد المسيح بآلاف السنين حدث فعلا فيضان ، وتجدان اشارة له لا في الانجيل العبري وحــده بل كذلك في كتب الشعوب القـديمة كاليونانيين والكلدانيين والهندوس . ولكن مهما كانت ضخامة هذا الفيضان فلا يمكن ان يغرق الكرة الارضية كلها . ربما اغرق الســهول — ولكنه لم

يغرق الجبال . لا ضرر في قراءة هذا الكتاب ولكن لا داعي لأن تصدقا كل ما يقول » .

انهمرت دموع ليفا من جديد ، ثم ابتسمت وفجأة اذا بها تنفجر باكية بصوت مرتفع ، حتى لقد قفز كوستيا من مقعده في خيبة امل ..

قالت وهي تنتحب :

ـ « اريد ان اعود الى البيت ، الى بابا والممرضة » .

وبدات ساشا تبكي هي الأخرى . فصعد كوستيا الى الدور العلوى واتصل بيوليا سيرجيفنا بالتليفون :

ـ « يا فتاتي العزيزة ، لقد عادت الطفلتان الى البكاء مرة اخرى . ولا أعلم ماذا افعل » .

جاءت يوليا سيرجيفنا مسرعة من البيت الكبير وقد وضعت فوق ثوبها وشاحا من الصوف ، وكانت ترتعد بعض الشيء من تأثير البرد . وتوسلت الى الطفلتين وهي تضمهما اليها :

ـ « استمعا الي ، استمعا ، سيحضر أبوكما اليوم ، لقد أرسل برقية الي . وما حدث لماما امر محزن جدا ، وقلبي يتمزق من اجلكما انتما الاثنتان ولكن ماذا نستطيع ان نفعل ؟ اننا لا نستطيع أن نعترض على أرادة الله ! » .

وحينما كفتا من الصراخ ، ضمتهما اليها ، وصحبتهما معا في نزهة بالعربة ، مررن خلالها بشارع مالايا دميتروفكا ، ثم امام ستراستنوا حتى تفرسكايا . وفي كاتدرائية أفيرسكي وضعت كل منهن شمعة أمام الصور ، وركعت وصلت . وفي طريق العودة نزلن في فيليبوف واشترين بعض الحلوى .

كانت اسرة لابتيف تتناول غداءها فيما بين الساعة الثانية والثالثة وكان بيوتر يقوم بالخدمة على المائدة . وبيوتر كان يصنع كل

شيء . في الصباح يخرج لاحضار الحاجيات من مكتب البريد ، ومن المخزن ، ومن محكمة الحى لكوستيا ، ويقدم الوجبات الى جانب ذلك . وفي المساء يصنع السجائر ، وفي الليل يفتح الباب ، وفي الخامسة صباحا يكون قد أوقد الأفران . ولا أحد يعلم متى ينام . كان مغرما بفتح زجاجات الصودا ، وكان يفتحها بمهارة فائقة ، دون أن تنسكب منه قطرة واحدة .

وقال كوستيا وهو يهز كأسا من « الفودكا » أمام طبق حسائه :

— « هنا نبدأ » .



في بادىء الأمر لم تكن يوليا سيرجيفنا تحب كوستيا ، فصوته الغليظ ، والتعبيرات التي يستخدمها مثل « ضربه بالشلوط » ، « دفعه في وجهه » ، « عفن » ، « يمون ابريق الشاى الكبير » ، وعادته في خبط الكئوس والقاء الخطب قبل كل كأس من النبيذ ، بدا لها ذلك سوقيا الى أبعد حد . ولكنها حينما عرفته أكثر بدأت تشعر بمنتهى الراحة في صحبته . فقد كان صريحـــــا معها ، ويحب أن يثرثر معها بهدوء في المساء ، بل وأكثر من ذلك سمح لها بقراءة رواياته ، التي ما زال يحتفظ بها سرا يخفيـــــــه حتى عن أصدقائه المقربين من أمثــال لابتيف وبلوتسيف . قرأت الروايات واثنت عليها لـكيلا تؤذي مشاعره ، وسره ذلك الى أبعد حد . فقد كان يعتقد أنه سيصبح ، أن عاجلا أو آجلا ، كاتبا مشهورا . وكان لا يكتب الا عن الفلاحين والأعيان ، بالرغم من أنه لم يعش في الريف الا في مناسبات قليلة حين كان يزور أصدقاءه ولم يدخل بيتا ريفيا الا مرة واحدة في حياته حين ذهب الى « فولو كولامسك » في مهمـــة قــانونية . تجنب الـكتابة عن الحب ، وكان الموضوع يزعجه ، ولكنه كثيرا ما وصف الطبيعة ، وكان ضعيفا أمام تعبيرات

مثل « الأبعاد الخيالية للجبال » ، « تكوينات السحب الرائعة » ، او « سيمفونية من الأصوات الخفية المنسجمة » . ولم تطبع رواياته ابدا ، وهى حقيقة يعتبر الرقيب مسئولا عنها .

كان يحب عمله كمحام ، ولكنه يعتقد ان الأدب هو مهنته الأصيلة وليس القانون . لقد سحره الفن دائما وكان واثقا بأن طبيعته طبيعة فنية رائعة . لم يكن يغنى ولا يعزف على اى آلة واذنه ليست موسيقية بأية حال ، ولكنه كان يذهب الى الحفلات السيمفونية والفيلهارمونية ، ويتولى ترتيب كل شئون الحفلات الخيرية ، ويقدم نفسه للموسيقيين .



دارت احاديث كثيرة على الغداء ، فقال لابتيف :

ـ « هل تصدقون ان أخى فيودور طلع علينا اليوم بمفاجأة جديدة . انه يقول يجب ان نعلم متى ستتم المؤسسة قرنا من عمرها حتى نقدم طلبا لرفعنا الى طبقة النبلاء . وهو جاد تماما فيما يقول . ولست ادرى ماذا افعل . بصراحة لقد بدأت اتوجس خيفة » .

وتحول الحديث الى فيودور ، وكيف أصبح مما يتمشى مع العادات الحديثة هذه الأيام أن يتخذ الانسان موقفا استعراضيا أو آخر ، ففيودور مثلا ، يحاول ان يقوم بدور التاجر الروسى الغيور على عمله ، وهو شىء لم يعد له وجود الآن ، ويتحدث بصوت خليط مجامل مع مدرس المدرسة الذى يرعاه لابتيف الكبير ، حين يحضر ليتسلم راتبه .

وبعد الغداء انتقلوا الى المكتبة لأنه لم يكن لديهم شىء افضل يفعلونه ، وتحدثوا عن الانحلاليين وعن « عذراء أوليانز » ، والقى كوستيا مونولوجا طويلا من المسرحية تصور انه محاكاة دقيقة ليرمولوفا . وجلسا بعد ذلك ليلعبوا الورق . ولم تذهب الفتاتان

الصغيرتان الى مسكنهما ، بل جلستا متجاورتين في مقعد وثير ، شاحبتين حزينتين ، تجفلان مع كل صوت عربة تمر امام المنزل ، على امل ان يكون ابوهما قد وصل . كانتا يائستين الى ابعد حد ، وبخاصة في المساء ، وحتى بعد ان تشعل الشموع . كانتا تنزعجان لحديث الكبار على مائدة اللعب ، ووقع اقدام بيوتر ، وقرقعة الاخشاب في المدفأة . كانتا اتعس من ان ترقبا السنة النار المشتعلة ، ولم تستطيعا حتى ان تواصلا البكاء . كان كل شيء يثير فزعهما . وكان قلباهما مثقلين ، ولم يكن باستطاعتهما ان يفهما كيف يستطيع اي شخص ان يتحدث ويضحك وامهما ميتة .

سألت يوليا سيرجيفنا كوستيا :

— « ماذا رأيت اليوم بمنظارك المعظم ؟ » .

— اليوم لا شيء ، ولكن بالامس رأيت الرجل الفرنسي يستحم » .

في الساعة السابعة خرجت يوليا سيرجيفنا وكوستيا للذهاب الى مسرح « مالي » . وبقي لابتيف بالمنزل مع الفتاتين الصغيرتين ، وقال وهو يلقي بنظرة على ساعته :

— « كان المفروض ان يكون ابوكما قد وصل الى هنا . لابد أن القطار تأخر » .

وجلست الفتاتان صامتتين ملتصقتين كل منهما بالأخرى في المقعد الوثير وكأنهما حيوانان ضئيلان يرتعدان من البرد ، في حين اخذ لابتيف يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ويلقي كل بضع دقائق بنظرة على ساعته وقد نفد صبره . كان المنزل ساكنا تماما . وحوالي الساعة العاشرة دق جرس الباب . وذهب بيوتر ليفتح .

وحين سمعت الصغيرتان صوت ابيهما صرختا ، وطارتا للقائه وهما تنتحبان بعنف . كان يرتدي معطفا فاخرا من الفراء ، وكانت لحيته وشاربه ملطخين بالجليد المندوف . وتمتم هامسا للفتاتين :

ـ « كفى ، كفى .. »

كانت « ساشا » و « ليدا » تضحكان وتبكيان في وقت واحد ، وتغطيان يديه الباردتين ، وقبعته ، وفراء معطفه بالقبلات . كان الاب وسيما ، واهنا ، مترعا بالحب . قريت عليهما وهو شارد الذهن . ثم توجه الى حجرة المكتب وقال وهو يفرك يديه :

ـ « لن ابقى طويلا يا اصدقائي . فغدا سأسافر الى بطرسبورج . فقد وعدني بوظيفة في مدينة اخرى » .

وتوقف قبل أن يقول :

ـ « دوسلدن » .

كان ايفان جافريليتش بارتسيف يتردد كثيرا على أسرة لابتيف . وكان رجلا متين البنيان ، أسود الشعر ، وجهه لطيف ، وذكي ، وكان يعتبر بشكل عام وسيما ، ولكنه في الفترة الأخيرة أصبح بدينا ، فافسد ذلك مظهره ، بالاضافة الى انه كان يسرف في تقصير شعره ، وفي ايام الجامعة اشتهر باسم « البطل » بسبب تكوينه الرياضي .

لقد تخرج في قسم اللغويات مع لابتيف وشقيقه ، ثم درس بعد ذلك العلوم الطبيعية ، وقد حصل الآن على درجة جامعية في الكيمياء ولم يكن يطمح الى الحصول على كرسي جامعي في الكيمياء ، بل لم يشتغل حتى في معمل ، ولكنه كان يدرس الطبيعة والتاريخ الطبيعي في مدرسة تجارية وفي مدرستين ابتدائيتين للبنات . وكان شديد الحماسة لتلاميذه ، والبنات منهم بصفة أخص ، ويصر على ان جيلا رائعا يتكون هذه الأيام . وبالاضافة الى الكيمياء ، قام بدراسة علم الاجتماع وتاريخ روسيا بنفسه ، وكان ينشر مقالات قصيرة في الصحف والمجلات يوقعها بالحرف الاول من اسمه : « ى » . وكلما تحدث عن علم النبات او الحيوان بدا وكأنه مؤرخ ، فاذا عالج مشكلة تاريخية خيل لمن يسمعه انه عالم طبيعي .

وكان « كيش » صديقا آخر مقربا لأسرة لابتيف ، ويعرف أحيانا باسم « التلميذ الخالد » . فقد أمضى ثلاث سنوات في مدرسة

الطب ، ثم تحول الى الرياضة وقضي عامين في كل سنة دراسية . وكان ابوه ، وهو صيدلي في أحد الأقاليم ، يرسل اليه اربعين روبلا كل شهر ، كانت امه تضيف اليها سرا عشرة اخرى . وكان هـذا المبلغ يكفيه ليعيش مطمئنا ، بل ليحصل كذلك على بعض الكماليات مثل معطف بياقة من فراء الجندب البولندى ، وقفاز ، وعطور وصور (كثيرا ما اخذ صورا لنفسه ليهديها الى معارفه) . كان رجلا صغيرا انيقا ، اميل للصلع ، وله سالفان ميالان للحمرة بالقرب من اذنيه ، وكان متواضعا ، كريم الأخلاق . دائما ابدا يؤدى خدمات للناس ، فاما أن يتجول مسرعا بقائمة اشتراكات ما ، واما ان يقف وهو يكاد يتجمد من البرد في صف امام شباك تذاكر منـذ الصباح الباكر ، ليبتاع تذكرتين في أحد المسارح لسيدة من معارفه ، أو يسرع ليشترى اكليلا أو باقة من الزهور لشخص ما . والنـاس دائما يقولون : « كيش » سيذهب ، « كيش » سيتولى الأمر ، « كيش » سيشترى ذلك ، وكان عادة يهمل في المهام المطلوبة منه فينهال اللوم عليه من كل جانب بسبب ما تحمله ، وكثيرا ما ينسى الناس أن يدفعوا له ثمن ما اشتراه لهم ، ولكنه لا يشكو ابدا ، ولا يزبد على التنهد . ولا يستعرض ابدا لا سعادله ولا متاعبه ، وكانت أحاديثه غبية طويلة ، ولا يضحك الناس على نكاته الا لانها لا تضحك ابدا . قال مرة لبيوتر « بيوتر أنت خفف » ، فضحك الجميع ، واشتد اعجابه بنفسه لأنه خفيف الظل بهذا القدر ، وفي جنازة اى استاذ لابد أن تجده في الطليعة بين حملة المشاعل .

في المساء يحضر بارتسيف و « كيش » لتناول الشاى . وعادة اذا لم يكن أهل البيت ذاهبين الى المسرح او الى حفل موسيقى ، فان تناول الشاى يمتد الى موعد العشاء . وذات مساء في فبراير بينما كانوا جالسين في حجرة الطعام ، اذ تطرق الحديث الى الفن .

واذا بكوستيا يقول وهو يحدج بارتسيف بنظرات صارمة :

ـ « لا تكون للعمل الفنى قيمة ما لم يعالج مشكلة اجتماعية جادة . والعمل الفنى الذى يحتج على العبودية ، أو يعبر عن سخط مؤلفه على فساد الطبقة الراقية ، عمل هام وقيم . اما الروايات والحكايات المليئة بالآهات والتأوهات ، والقصص الى تدور حول وقوع المراة فى حب الرجل ، ووقوع الرجل فى حب المراة ، مثل هذه الكتب لا قيمة لها بالمرة ومن الخير اعدامها » .

وقالت يوليا سيرجيفنا :

ـ « انا متفقة معك تماما ياكوستيا ، هذا كاتب يصف مكان لقاء المحبين ، وآخر يكتب عن الخيـــــانة ، وثالث يروى كيف تصالح العاشقان أليس هناك موضوع آخر يكتبون عنه ، هناك كثيرون من المرضى ، والتعساء ، والفقراء المعدمين ، ولابد انهم يثورون حين يقراون مثل هذه الأشياء » .

وكان لابتيف لا يسره أن يســمع زوجته ، وهى المراة الشابة التى لم تكمل بعد الثانية والعشرين من عمرها ، تتحدث عن الحب بمثل هذا التعقل والبرود . وكان يظن انه يدرك سبب ذلك .

وقال بارتـــيف :

ـ « ولكن اذا كان الشعر لا يحل هذه المشكلات التى تبدو شديدة الأهمية فى نظركم ، لماذا لا تتحولون عنه الى الأدب العلمى ، فى كتب القانون اوالمالية أو المقالات العلمية ، ولماذا تعالج « روميو وجوليت » مثلا موضوع مجـــانية التعليم أو تطهير الســجون بدلا من الحب ، ما دمت تجد كل ذلك فى المقالات الخاصة ومواد المراجع الموسـوعات الخاصة بالموضوع ؟ » .

فقاطعه كوستيا قائلا :

« ها انتذا تسرف فى المبالغة يا رجل . اننا لا نتحدث عن العمالقة

من امثال شيكسبير أو جوته ، اننا نتحدث عن مئات الكتاب الموهوبين او المتوســـــطين الذين سيصبحون أكثر نفعـــــا لو انهم تركوا الحب وشانه وكرسوا أنفسهم لتقـــديم المعرفة والأفكار الانسانية للجماهير » .

وشرح « كيش » يتحدث وكان شيئا يقف في حنجرته ، محدثا طنينا أنفيا خفيفا ، وبدا يروى قصة قراها اخيرا . وتعمد ان يحكيها ببطء وبتفصيلات كثيرة ، ومرت ثلاث دقائق ، ثم خمس ، ثم عشرة ، وهو ما زال يتكلم ، ولا احد يستطيع ان يفهم شيئا مما يقوله ، وكلما تقدم في الحديث ازداد تعبير وجهه جمودا وغباء .

وصرخت يوليا بصبر نافد :

ــ « اوه (كيش) ، أسرع بانهاء قصتك . انت تعذبنا ! » .

وصاح كوستيا :

ــ « اسكت يا كيش ، ارجوك ! » .

وضحك الجميع بما فيهم « كيش » نفسه .

ووصل فيودور وقد غطت بشرة وجهه بقع دموية حمراء . وصافح الجميع بسرعة ، ثم اخذ شقيقه ، وذهب الى حجرة المكتب . فقد بدأ في الفترة الأخيرة يتجنب التجمعات الكبيرة .

وقال وهو يريح نفســه في مقعد كبير بعيدا عن الضوء :

ــ « دع الشباب يمرحون ، اما انا وانت فباستطاعتنا أن نتحدث حديثا هادئا وحدنا ، هيه يا صديقي القديم ، لم أرك منذ زمن بعيد . متى حضرت الى المخزن آخر مرة ؟ منذ اكثر من اسبوع ، اليــس كذلك ؟

ــ نعم . فليس هناك ما استطيع عمله . وبالاضافة الي ذلك يجب ان اعترف بان العجوز يثير أعصابي .

ــ مؤكد ، فمن الممكن ان يمضى العمل فى المخزن على خير ما يرام

دون حاجة الينا نحن الاثنان ، ولكن يجب على الانسان ان يقوم بعمل ما . فيجب ان تأكل خبزك من عرق جبينك كما تعلم . والله يحب ان يشقى الانسان في عمله » .

ودخل بيوتر حاملا كوبا من الشاى فوق صينية . فشربه فيودور بدون سكر ، وطلب كوبة اخرى . كان دائما يشرب كميات كبيرة من الشاى ، تصل احيانا الى عشرة أكواب في المساء الواحد .

وقال فيودور وهو يقف ويتجه نحو شقيقه :

ـــ « اسمع يا الكسى ، لماذا لا ترشح نفســــــك لمجلس المدينة ؟ بالتدريج ، وشيئا فشيئا سنستطيع ان نجعلك مستشارا ، ثم فيما بعد نائبا للمحافظ . انت ذكى ومتعلم تعليما حسنا . وفي الوقت المناسب سيلاحظونك ويدعونك الى بطرسبرج ، فكثيرون من قـــادة المدن والريف قد أصبحوا مشهورين الآن ، ومن يدري فلعلك قبل أن تبلغ الخمسين تكون قد أصبحت مستشارا ملكيا تضع وشاحا على كتفك » .

لم يقل لابتيف شيئا ، فقد كان يعلم أن فيودور يتمنى هـــذه الأشياء ـــ عضوية المجلس الاستشارى الملكى ، والأوشحة ، وبقية هذه الأشياء كلها ـــ كان يتمناها لنفسه ، ولم يدر ماذا يقول .

جلس الشقيقان صامتين . ثم أخرج فيودور ساعته ، وفتحها ، وحدق فيها بثبات وقتا طويلا وكأنه يريد ان يمسك بحركة العقارب. وبدا التعبير المرتسم على وجهه غريبا في نظر لابتيف .

ودعيا الى العشاء ، فذهب لابتيف الى حجرة الطعام ، اما فيودور فقد ظل في حجرة المكتب . ولم يحتدم الجدل على العشاء ، وبدلا من ذلك اتخذ بارتسيف نغمة المحاضر :

ـــ « المساواة مستحيلة بسبب الاختلافات الطبيعية في الجو ، والنشاط ، والأذواق ، والأعمار . ولكن الانسان المثقف يستطيع ان

يجعل عدم المساواة غير ضار كما فعل مع المستنقعات والدببة . كلنا نعرف ذلك العالم الذى علم قطة ، وكلبا ، وصقرا ، ومصفوراً ، ان تأكل من طبق واحد ، والتعليم فيما نرجو ، سيحقق الشيء نفسه مع الآدميين . ان الحياة تتقدم باستمرار ، والثقافة قد حققت تقدما هائلا ، ولا شك انه سيأتى وقت يصبح فيه الوضع الحالى لعمال المصانع مثلا غير معقول كالعبودية تماما .. حينما كانت بنات الفلاحين يقمن بعمل الكلاب » .

وقال كوستيا وهو يضحك ضحكة صغيرة :

— « سيحتاج الأمر الى وقت طويل قبل ان يتحقق ذلك . وسيحتاج روتشيلد الى وقت طويل قبل ان يعتبر أقبيته المليئة بالذهب غير معقولة ، وفى هذه الاثناء سيكون على العامل الفقير ان يحنى ظهره ويموت من الجوع . لا يا سيدى ، هذا لا يصلح . يجب الا ننتظر ، يجب أن نقاتل . واذا كانت القطة تأكل فى نفس الطبق كالفأر فهل تعتقد أن هذا معناه انها فهمت الخطأ فى أساليبها ؟ لا شيء من هذا . لقد اجبرت على فعل ذلك » .

وقال لايتيف وهو يحك جبهته :

— « انا وفيودور غنيان ، وأبونا رأسمالى ، مليونير ، وعلى ذلك يجب أن يقاتلنا الناس ! يقاتلوني — انا لا افهم هذا ، حقا انا غنى ، ولكن ما الذي كسبته من اموالى ، ما الذى كسبته من هذه القوة ؟ هل انا اسعد منكم ؟ كانت طفولتى عبودية على طول الخط ، ولم تنقذنى نقودى من الجلد . ونقودى لم تساعد « نينا » حينما مرضت وماتت . واذا لم اكن محبوبا فلن استطيع اجبار أى انسان على ان يحبنى ولو انفقت ملايين من اجل ذلك » .

وقال « كيش » :

— « ولكنك تستطيع ان تصنع خيرا كثيرا » .

ــ كلام فارغ ! لقد طلبت مني امسي ان أساعد عالما رياضيا في العثور على وظيفة . صدقني ، انا لا استطيع ان أصنع من اجله اكثر مما تستطيع انت . نعم ، استطيع ان اعطية نقودا ، ولكن ليس هذا ما يريد ، لقد طلبت مرة من موسيقي مشهور أن يجد عملا لعازف كمان شديد الفقر ، فقال لي : « لو كنت موسيقيا لما طلبت مني هذا أبدا » . وكذلك أستطيع انا ان اقول نفس الشيء لك : لو انك عشت مرة في مكان رجل غني لما جئت ابدا تطلب مني العون بمثل هذه الثقة » .

وقالت يوليا سيرجيفنا وقد احمر وجهها خجلا :

ــ « لست افهم وجه الشبه بالمرة ، ما صلة الموسيقي المشهور بالأمر ! » .

وتقلص وجهها بالكراهية ، فاغلقت عينيها بسرعة لتخفيها ، ولكن زوجها وكل من على المائدة لم تفتهم ملاحظة تلك النظرة .

وعادت تقول بصوت منخفض :

ــ « ما دخل الموسيقي المشهور في الامر ؟ ان اسهل شيء في الوجود هو مساعدة رجل فقير » .

وخيم الصمت . وقدم بيوتر الدجاج ، ولكن أحدا لم يمس شيئا من الطعام ، باستثناء بعض المشهيات . وكان لابتيف قد نسي ما قاله بالفعل ، ولم يعد لذلك اهمية على أية حال . فهو يدرك ان الامر لا يتعلق بكلماته ، فمجرد انه تكلم فحسب كان امرا بغيضا اليها .

بعد العشاء ذهب الى حجرة المكتب وجلس هناك ، وظلت ضربات قلبه تتلاحق سريعة وهو ينصت بتركيز شديد للحديث الدائر في حجرة الطعام وينتظر مزيدا من الاذلال . لقد عادوا الى المناقشة مرة اخرى . ثم جلس يارتسيف الى العزف ، وانشد أغنية عاطفية .

كان شخصا متعدد المواهب : يستطيع أن يغني ويعزف على البيانو ، بل ويقوم بعدد من الألعاب السحرية .

وأعلنت يوليا قائلة :

ـ « أيها السادة ، لست ادرى ما رغباتكم ، ولكنى لا اجد فى نفسى الرغبة فى البقاء فى البيت . فلنذهب الى مكان ما » .

قرروا ان يقوموا بنزهة خارج المدينة ، وأرسلوا « كيش » الى نادي التجار ليستأجر زحافة بثلاثة خيـــول . لم يدعوا لابتيف لصحبتهم لانه لم يكن يخرج فى العادة للنزهة خارج المدينة ، فضلا عن أن شقيقه كان معه ، ولكنه اعتبر ذلك دليلا على انهم يجدونه سخيفا جدا ، وانه ليس له مكان وسط هذه المجموعة من الشبان المرحين ، وشعر بمرارة للموقف حتى كاد يبكي ، بل لعله كان سعيدا لأنهم يسيئون معاملته ويتجاهلونه ، وانه ليس اكثر من زوج غبي أحمق ، كيس نقود تعس ، بل انه ليمضى الى أبعد من ذلك ليرى أنه من الأفضل لو ان زوجته كانت تخونه ، ولو هربت مع أقرب أصدقائه هذه الليلة نفسها ، ثم اعترفت فيما بعد وعيناها مليئتان بالكراهية .. كان يغار من الجميع ـ من أصدقائها من الطلبة ، والممثلين ، والمغنيين ، من ياروتسيف ، بل حتى من المارة أيضا . لكم يتمنى لها لو كانت خائنة ، لكي يضبطها مع شخص ما ويتناول السم وينهى هذا الكابوس البشع .

كان فيودور جالسا يرشف شايه بصوت مزعج ، ولكنه فى النهاية نهض هو الآخر لينصرف ، وقال وهو يرتدي معطفه :

ـ « اخشى أن يكون العجوز قد اقترب من العمى ، فنظره آخذ في الضعف » .

ارتدى لابتيف معطفه هو الاخر وخرج مع شقيقه ، وصحبه

حتى شارع ستراستونى ، ثم اخذ عربة الى مطعم « اليار » . واخذ يسخر من نفسه :

ــ « هذا ما يسمونه بالسعادة الزوجية ! حب ، حقا » ..

كانت اسنانه تصطك ، من الغيرة أو من شيء آخر ، لم يكن يدرى . وحين وصل الى المطعم ، تطلع حوله بين الموائد ، وانصت الى المغنى فى الصالة ، وهو يتساءل عما سيقوله لو تصادف وقابل زوجته وأصدقاءها . كان يعلم مقدما انه لو قابلهم فلن يزيد على الابتسام باشفاق بل وغباء وسيعلم الجميع لماذا حضر . انتابه دوار من الاضواء الساطعة ، والموسيقى العالية ، ورائحة المساحيق التى تملأ الوجوه ، والطريقة التى حدجته بها النساء . وتوقف عند المدخل محاولا ان يرى ويسمع ما يدور فى المقاصير الخاصة ، واحس انه والمغنى وهؤلاء النسوة يلعبون معا احدى اللعب الوضيعة . بعد قليل اتجه بالعربة الى مطعم « ستريلنا » ، ولكن زوجته لم تكن هناك أيضا ، ولكنه وهو عائد فى طريقه الى « اليار » مرة اخرى دهمته عربة صاخبة بثلاثة جياد ، واستطاع ان يسمع علاوة على صيحات السائق المخمور الوحشية صوت يارتسيف العالى قائلا :

ــ « هو ! هو ! » .



حين وصل اخيرا الى البيت كانت الساعة قد قاربت الرابعة صباحا ، وكانت يوليا قد اوت الى فراشها ، وحين لاحظ انها ليست نائمة ، ذهب اليها وقال بحدة :

ــ « استطيع ان افهم احتقارك وكراهيتك ، ولكن باستطاعتك مع ذلك ان تحترمينى امام الغرباء » .

جلست وخفضت قدميها ، وكانت عيناها تبدوان واسعتين داكنتين فى ضوء مصباح الايقونة . وقالت :

ـ « أنا آسفة ! » .

وقف صامتا ، منفعلا الى درجة لم يستطع معها ان يقول شيئا . وكانت هي الاخرى ترتعد ، وتجلس امامه شاعرة بالذنب .

قبض على راسه بيديه وصاح :

ـ « هذا الالم . لا استطيع احتماله اكثر من ذلك . اعتقد أني في طريقي للجنون » .

وصرخت :

ـ « هل تعتقد ان الأمر سهل علي ؟ الله وحده يعلم كم اعاني .

ـ أنت زوجتي الآن منذ ستة أشهر ، ومع ذلك فليس في قلبك شعاع حب نحوي ، حتى ولا بصيص . لماذا تزوجتني ؟ » .

ومضى لابتيف يقول في يأس :

ـ « لماذا ؟ أي شيطان دفع بك بين ذراعي ؟ ماذا كنت ترجين ؟ ماذا كنت تريدين ؟ » .

واستمرت تحدق فيه بفزع وكأنها تخشى ان يقتلها ، في حين واصل هو حديثه وهو يتنفس بصعوبة :

ـ « هل تهتمين بي ؟ هل تحبينني ؟ لا ! ماذا اذن ؟ ماذا ؟ تكلمي ! » .

ثم صرخ قائلا :

ـ « انها هذه النقود الملعونة ! هذه النقود الملعونة ! » .

بكت ، ورسمت علامة الصليب على صدرها :

ـ « اقسم بالله أن الامر ليس كذلك ! » .

انكمشت للاهانة ، وكانت أول مرة يسمعها تبكي ، وأخذت تعيد قولها :

ـ « لا ، اقسم بالله ! أنا لم افكر في نقودك ، ولا اريدها ، كل ما في الامر اني اعتقدت اني أخطيء حين ارفضك . كنت اخشى

ان احطم حياتنا ، حياتك وحياتي . وها انذا الآن ادفع ثمن الخطأ . ولا استطيع الاحتمال ! » .

اخذت تنتحب بمرارة ، وادرك كم تعاني ، ولما لم يعرف ماذا يقول وكع على ركبتيه امامها وتمتم قائلا :

ـ لا « لا تبكي ، لا تفعلي ، لقد اهنتك لاني احبك بجنون » .

وفجأة اذا به يقبل قدمها ، ويضمها اليه بشوق شـــديد وهو يتمتم .

ـ « كل ما اطلبه هو شعاع من الحب لا اكثر . اكذبي على ، اوجوك ! اكذبي علي ، لا تقولي انه كان خطأ ! » .

ولكنها واصلت بكاءها ، ورأى أنها احتملت قبلاته كعقاب لخطئها لا أكثر . سحبت القدم التي قبلها وثنتها تحتها كالطائر . وفجأة اذا به يشعر بالحزن من اجلها .

استلقت على السرير وسحبت الأغطية فوق رأسها ، وخلع هو ملابسه واستلقى الى جوارها . وفي الصباح كان كل منهما مرتبكا لا يدرى ماذا يقول ، بل وخيل اليه انها لا تطأ بنفس الثبات على القدم التي قبلها .

وقبيل الغداء حضر بانوروف ليودعهمـــا . وتملك يوليا حنين مفاجيء لمدينتها . وقالت لنفسها ، ما أجمل أن يفر الانسان من هذه الحال المحرجة ، والاحساس المستمر باقتراف الخطأ .

وعلى الغداء تقرر ان تسافر مع بانوروف وتقضي اسبوعين او ثلاثة مع أبيها .

جلست يوليا سيرجيفنا وبانوروف في مقصورة وحدهما . وكان بانوروف يرتدي قلنسوة غريبة الشكل مصنوعة من جلد جمل ، وقال وهو يتنهد :

- « لا ، لست قانعا بالمرة بسانت بطرسبورج . وللدي وعود كثيرا جداً ولكن لا شيء محدد . نعم يا عزيزتي . لقد عملت قاضي مصالحات وعضواً دائما في المحكمة الريفية ثم رئيسا لها ، وفي النهـــــاية مستشاراً في الحكومة المحلية ، لقد خدمت بلادي بجد ، واعتقد أني جدير بشيء من التقدير . ومع ذلك فها أنت ترينني عاجزا عن الفوز بالنقل الى مدينة اخرى » .

واغلق عينيه وهز راسه ، ومضى يقول في فتور :

- « انهم لا يقدرونني . طبعا ، لست اداريا ممتازا ، ولكنني شريف وذو ضمير ، وهاتان صفتان نادرتان هذه الايام . اعترف انه من المحتمل اني كنت غير وفي بعض الشيء مع النساء ، ولكني في علاقاتي بالحكومة الروسية كنت مهذبا دائما » .

ثم عاد يقول وهو يفتح عينيه :

- « ولكن كفانا حديثا من هذا . لنتحدث عنك أنت . ما السبب في هذه الزيارة المفاجئة لوالدك ؟ » .

واجابت يوليا وهي تتطلع الى قلنسوته :

- « آه ، مجرد سوء تفاهم بسيط مع زوجي » .

ـ نعم ، انه غريب بعض الشيء . كل افراد اسرة لابتيف هكذا . ان زوجك ليس بالغ السوء ، ولكن شقيقه فيودور هذا ، انه احمق بالفعل » .

تنهد بانوروف ثم سأل باهتمام :

ـ « هل لك عشيق ؟ » .

فنظرت اليه يوليا في دهشة ثم ضحكت :

« يالله ، ما أقرب ما قلت ! » .

في حوالي الساعة الحادية عشرة نزلا في احدى المحطات الكبيرة وتعشيا معا في مطعم المحطـــة . وحين عادا الي مقصورتهما خلع بانوروف معطفه وقلنسوته وجلس الي جوار يوليا ثم بدا يقول :

ـ « يجب أن اقول انك جميلة جدا . واغفري لي هذه المقارنة الرخيصة ، ولكنك تذكرينني بخيارة صغيرة هشة حديثة التمليح ، ما زالت محتفظة بعبير الحقل ، ومع ذلك فهي تحوي بالفعل قليلا من الملح ونكهة البهارات . لديك كل هبات امراة شديدة الروعة ، امراة فاتنة رشيقة » .

وتنهد ثم قال :

ـ « لو أننا سافرنا معا منذ خمس سنوات لوجدت من واجبي السعيد أن انضم الى موكب المعجبين بك ، اما الآن ، وا أسفاه ، فانا عليل » ..

وابتسم ابتســامة حزينة ، ولكنها متلطفة مع ذلك ، ثم وضع ذراعه حول خصرها . شهقت يوليا واحمر وجهها ، وكادت تفقد وعيها من الفزع :

ـ « جريجوري نيكولايفتش ، ابتعد عني ! » .

فسألها برقة :

ـ « ماذا تخشين يا عزيزتى ؟ ماذا حدث ؟ كل ما فى الأمر انك لم تتعودى على ذلك بعد » .

كان كلما قاومت امرأة محاولاته اعتبر ذلك ، بمنتهى الثقة ، دلالة على فوزه بها لا أكثر . وعلى ذلك فقد أمسك يوليا من خصرها بقوة ، وقبلها على خدها ، ثم فى شفتيها ، وهو واثق تمام الثقة بأنه يمنحها أقصى سعادة ممكنة . اما وقد تخلصت يوليـــا من فزعها وارتباكها فقد شرعت تضحك .

قبلها مرة أخرى ، ثم ارتدى قلنسوته المضحكة وهو يقول :

ـ « هذا كل ما تستطيعين توقعه من رجل عليل . يحكى أنه كان هناك باشا تركى ، رجل عجوز لطيف ، أهدوه حريما كاملا ، أو ورثه ، لا أذكر أيهما . وحينما كانت زوجاته الصغيرات الجميلات يقفن أمامه صفا ، كان يمر بالصف ويقبل كل واحدة منهن فى دورها وهو يقول : « هاك ، هذا كل ما أستطيع ان اعطيه لك الآن . وهذا ما اقول انا ايضا » .

بدا لها كل ذلك شاذا وسخيفا ، ولكنها وجدته مسليا مع ذلك . وأحست بالرغبة فى العبث ، فوقفت على المقعد وهى تترنم بصوت خافت ، وأخذت علبة حلوى من فـــوق الرف ، وقذفته بقطعـــة من الشكولاتة وهى تقول :

ـ « امسك ! » .

التقط باتوروف قطعة الشكولاتة ، فقذفته يوليا بقطعة أخرى وهى تضحك بمرح ، ثم بثالثة التقطها جميعا وحشرها فى فمه ، وهو يحدق فيها متوسلا . ولم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير فى أن ثمة شيئا فى وجهه وسلوكه مخنثا وطفوليا الى أبعد حد . وحين عادت الى الجلوس لاهثة الأنفاس وواصلت تأمله باستمتاع ، لمس خدها باصبعه وقال فى خيبة أمل ساخرة :

— « لماذا ، أيتها الطفلة الشقية ! » .

وقالت وهى تقدم له العلبة :

— « خذ هذا ، لست مغرمة بالحلوى » .

التهم بانوروف الحلوى كلها ، ثم وضع الصندوق الفارغ فى حقيبته فقد كان به ضعف خاص نحو العلب ذات الرسوم .

وقال :

« والآن كفانا هذرا . لقد حان وقت نوم الرجل العليل » .

وأخرج رداءه المنزلى المصنوع من حرير « بخارى » ، ووسادة ، وتمدد وتغطى بالرداء وهمس وهو يتنهد وكان كل جسده يؤلمه :

— « أسعدت مساء يا حلوتى » .

وبعد بضع دقائق كان شخيره قد ارتفع . ودون أن تشعر يوليا بأقل خجل تمددت هى الأخرى وسرعان ما راحت فى النوم .



فى صباح اليوم التالى حين اخذت يوليا طريقها من المحطة الى بيتها كانت شوارع بلدتها تبدو مهجورة ، الجليد رمادى ، والمنازل ضئيلة ومسطحة بشكل ما . وفى طريقها مرت بموكب جنائزى ، وشهدت تابوتا مفتوحا فوق صندوقه تحيط به رايات الكنيسة ، فقالت لنفسها :

— « يقولون ان لقاء جنازة فال حسن » .

ولاحظت على المنزل الذى كانت تسكنه نينا فيودروفنا لافتات كتب عليها « للبيع » .

دخلت يوليا فناء بيتها وقد أسرعت خفقات قلبهـــا ، ودقت الجرس . فتحت الباب خادمة جديدة ، فتاة سمينة فى عينيها آثار النوم ، وعلى جسدها سترة من اللباد السميك . وبينما يوليا تصعد درجات السلم التى أصبحت الآن قذرة غير مكنوسة ، تذكرت

انه هنا طلب لابتيف الزواج منهـــا . وفى الممر البارد فى الدور العلوي كان مرضى ابيها ينتظـــــــرون دورهم ، وقد تكوموا داخل معاطفهم الثقيلة . ولـــسبب ما اسرعت دقات قلبها وشعرت بفتور فى اطرافها .

كان الطبيب يحتسى الشاى ، وقد أصبح سمينا أكثر من أى وقت مضى ، وأصبح وجهه احمر كقالب الطوب ، وترك شـــــعره غير ممشط . لقد كانت هى الفرحة الوحيدة فى حياة ذلك الشيخ — وفى اندفاعة عاطفية عانقته بحرارة وقالت انها جاءت لتقيم معه فترة طويلة ، حتى عيد الفصح . وبعد أن غيرت ملابسها جاءت الى حجرة المائدة لتناول الشاى ، ولكنه ظل يذرع الحجرة جيئة وذهابا وهو يتمتم « رو — رو — رو » ، علامة على ان شيئا ما لا يعجبه .

ثم ما لبث أن قال :

— « انك تعيشين حياة مرحة فى موسكو ، وانا شديد السعادة من أجلك . اما بالنسبة لى ، فماذا يمكن ان يحتاج رجل عجوز مثلى ، سرعان ما سأنفق فيرتاح الجميع أكثر . الشيء العجيب ان جسدى قوى بصورة شيطانية ، وما زلت اعيش ! شيء مذهل ! » .

وقال انه حمار شغل عجوز وقوى يمتطيه الجميع ، وانه هو الذى قام بعلاج نينا فيودروفنا قبيل وفاتها ، ورعى طفلتيها ، ورتب الجنازة بالاضافة الى ذلك ، وأن ذلك الخليع باتوروف رفض القيام بأى شيء ، بل وأكثر من ذلك اقترض منه مائة روبل ، لم يردها حتى الآن .

واضاف الطبيب :

— « من الافضل ان تأخذينى الى موسكو وتضعينى فى مصحة للأمراض العقلية . انا رجل مجنون ، طفل ساذج لأنى ما زلت اومن بالحق والعدل ! » .

ومضى بعد ذلك يلوم زوجها لأنه قصير النظر هكذا ، لا يشترى منازل وقد اصبحت رخيصة .

زايل يوليا احساسها بانها الفرحة الوحيدة فى حياة هذا الرجل العجوز . وبينما كان يستقبل مرضاه ويقوم بجولاته ، كانت هى تتجول بلا هدف فى كل الحجرات . احست بشىء من الغربة فى بلدتها وبيتها ، ولم تكن لديها اى رغبة فى الخروج أو زيارة احد ، وحين فكرت فى صديقات صباها ، وفى حياتها قبل الزواج لم تشعر باى حزن ولا ندم .

وفى المساء ارتدت افضل اثوابها وذهبت لحضور الصلاة . ولكن لم يكن فى الكنيسة سوى قوم بسطاء ، ولم يحدث معطفها الرائع المصنوع من الفراء ، ولا قبعتها اى اثر . وبدا لها ان شيئا ما قد تغير فى الكنيسة وفيها هى نفسها على السواء . لكم كانت تحب الاستماع الى قراءة التراتيل اثناء الصلاة ، والجوقة وهى تردد الأناشيد وبخاصة : « ها انذا ارفع صوتى » ، ثم تتحرك بعد ذلك ببطء وسط الجمع متجهة الى منتصف الكنيسة حيث يقف القس ، وتستشعر مس الزيت المقدس لجبهتها . اما الآن فهى تتوق الى ان تنتهى الصلوات ، وبينما هى تخرج من الكنيسة تمنت فقط لو ان المتسولين لم يسألوها احسانا — فسيكون من المزعج ان تتوقف لتبحث فى جيوبها ، فضلا عن انها لم تعد تحمل الآن عملة نحاسية فى جيوبها ، بل روبلات فقط .

فى تلك الليلة اوت الى فراشها مبكرة ، ولكنها ظلت مستيقظة مدة طويلة . وحينما نامت حلمت ببعض الصور وبموكب الجنازة الذى شاهدته فى الصباح ، وحلمت انهم ادخلوا النعش المفتوح الى الفناء ، وظلوا يؤرجحونه لفترة طويلة ، ثم فجاة اذا به يصطدم بالباب . استيقظت من نومها وقفزت من الفراش فزعة . واسفل

كان شخص ما يطرق الباب ، وكان السلك الممتد من جرس الباب يحتك بالحائط ، ولكن الجرس لا يرن .

وسمعت الطبيب يسعل والخادمة تهبط السلم ثم تعود . وسمعت طرقة على بابها وصوت الخادمة يقول :

ــ « سيدتي ، سيدتي ! » .

وسألت يوليا :

ــ « ماذا حدث ؟ » .

ــ « برقية لك ! » .

اخذت يوليا شمعة وخرجت الى الممر . كان الطبيب يقف خلف الخادمة وقد القى بمعطف فوق قميص نومه ، وكان هو الآخر ممسكا بشمعة . وقال وهو يتثاءب :

ــ « ان الجرس تالف ، كان يجب أن أصلحه من زمن بعيد » .

فتحت يوليا البرقية وقرات :

« كنا نشرب في صحتك » .

« يارتسيف ، كوتشيفوا » .

فقالت :

ــ « يا لهم من حمقى ! » .

وانفجرت ضاحكة . وشعرت فجاة بخفة في قلبها ومرح .

وحين عادت الى حجرتها اغتسلت ببطء وارتدت ملابسها ، وأمضت بقية الليل تحزم ثيابها .

وظهر اليوم التالي سافرت الى موسكو .

ذات يوم اثناء اسبوع عيد الفصح ، ذهبت أسرة لابتيف لزيارة معرض تصوير في مدرسة الفنون . وكالعادة المتبعة في موسكو ذهبت الاسرة كلها بما فيها الطفلتان ومربيتهما وكوستيا .

وكان لابتيف يعرف أسماء جميع الفنانين المشهورين ولم يفته معرض ابدا . واحيانا كان يرسم بعض المناظر الطبيعية بنفسه اثناء عطلاته الصيفية في الريف ، وكان يعتقد انه يتمتع بقدر كبير من الذوق الفني ، وانه لو درس الفن لكان من الممكن أن يصبح فنانا مجيدا . وحين يسافر الى الخارج كان يمر بحوانيت التحف ، ويفحص الأشياء بحركات الخبير ، ويعبر عن رأيه ؛ ثم يشترى فى النهاية شيئا ، يطلب فيه صاحب الحانوت اى ثمن يتخيله ؛ فيدفعه لابتيف ، ويظل الشيء المشترى بعد ذلك ملقى بلفافته في صندوق العربة حتى يختفى ولا يعلم أحد اين ذهب . او قد يذهب الى حانوت لبعض الحفارين ويدرس بعناية المطبوعات أو قطع النحاس المحفور ، ويعلق على دقة الصنع ، ثم يشترى اطارا رخيصا او صندوقا من الورق لا نفع فيه — وكل الصور فى بيته من الحجم الكبير ولكنها رديئة في الأغلب ، وما لديه من لوحات جيدة معلقة باهمال . وكثيرا ما دفع مبالغ طائلة في لوحات ثبت فيما بعد انها نسخ مشوهة . أما ما يستلفت النظر حقا ، فهو انه بالرغم من حيائه الشديد فى معظم الامور ، يصبح فى معارض الفن جريئا وواثقا بنفسه بصورة غير عادية .

تفحصت يوليا سيرجيفنا اللوحات مثلما فعل زوجها ، من خلال منظار الاوبرا او قبضة يدها المضمومة ، وابدت اعجابها لأن الناس فى الصورة يبدون وكأنهم احياء ، وان الاشجار تبدو وكأنها اشجار حقيقية . ولكن معظم الصور كانت تبدو متشابهة فى نظرها ، وهى تعتقد ان الهدف الوحيد للفن هو أن يجعل الناس والأشياء فى الصورة تبدو حقيقية حين تغلق احدى عينيك وتنظر اليهم من خلال قبضة يدك المضمومة .

واخبرها زوجها قائلا :

« هذه غابة شيشكين ، انه لا يشير الى اى شىء آخر . انظرى الى هذاالجليد ! أن الجليد لا يكون ابدا بنفسجيا هكذا ... وهذا الغلام ذراعه اليسرى اقصر من ذراعه اليمنى » .

وفى النهاية حينما كانوا جميعا قد انهكوا تماما ، ولابتيف قد ذهب للبحث عن كوستيا حتى يستطيعوا العودة الى البيت ، توقفت يوليا امام منظر طبيعى صغير ونظرت اليه بلا اكتراث . كان فيه نهر صغير فوقه جسر خشبى ، والممر فى الضفة الاخرى يتلاشى وسط مروج داكنة تحف بها غابات الى اليمين . وكان هناك ايضا معسكر نار من الواضح انه من صنع بعض الرعاة ، وكان الدخان لا يزال يتصاعد الى السماء عند الأفق .

وتصورت يوليا نفسها تسير على الجسر ، ثم فى ذلك الممر وتتقدم فى ذلك الشفق الهادىء حيث الطيور البرية تنعق فى نعاس ، وتتوهج نار على البعد . وبدت لها تلك السحب ، وكذلك هذه الغابة والمروج ايضا ، بدت لها مألوفة بشكل غريب ، لقد رأتها مرات كثيرة من قبل منذ زمن بعيد ، وسيطرت عليها وحشة غريبة ، وارادت ان تسير فى ذلك الممر وتبتعد متجهة نحو الغروب وذلك الشريط الغامض من السماء .

وقالت وقد ادهشها اكتشافها انها فهمت اللوحة :

ـ « يا لها من صورة رائعة . انظر يا الكسي ! الا تستطيع الاحساس بالهدوء الذى يقلب عليها ؟ » .

حاولت أن تشرح لماذا اعجبها المنظر الطبيعي ، ولكن لا زوجها ولا كوستيا استطاعا ان يفهماها . فظلت تحدق في المنظر الطبيعي بابتسامة حزينة ، وقد أحست بالضيق ، لانه لا احد سواها وجد فيه شيئا يستحق الاهتمام . وعادت تجوب الصالات تنظر الى اللوحات مرة اخرى ولم تعد تراها متشابهة هذه المرة . وحين عادت الى البيت جذبت انتباهها لاول مرة اللوحة الكبيرة المعلقة فوق المعزف في حجرة الاستقبال . فقالت في تحول مفاجيء :

ـ « لماذا يرغب الناس في امتلاك مثل هذه اللوحات ! » .

بعد ذلك اصبحت الاطر المزخرفة ، والمرايا الايطالية ذات الرسوم النباتية ، وبقية اللوحات المشابهة للوحة المعلقة فوق المعزف ، كل ذلك فضلا عن مناقشات زوجها وكوستيا حول الفن ، أصبحت تملؤها بالاشمئزاز والضيق ، بل والكراهية احيانا ..



مضت الحياة بيوليا رتيبة يوما بعد آخر دون شيء تتطلع اليه . وانتهى الموسم المسرحي ومال الجو الى الدفء . ومرت فترة طويلة رائعة الجو .

ذات صباح ذهب افراد اسرة لابتيف الى محكمة الحي ليسمعوا كوستيا يترافع دفاعا عن جندي محال الى الاستيداع اتهم بالاقتحام والسرقة . وقد غادروا المنزل متاخرين بعض الشيء ، وحين وصلوا الى المحكمة كان الشهود يستجوبون . كان هنالك عدد كبير من الشهود ، من الغسالات ، وقد شهدت بان المتهم كثيرا ما زار معلمتهن صاحبة المغسل . وفي الليلة السابقة ليوم الصليب المقدس

ظهر المتهم في ساعة متاخرة من الليل بعد ان شرب كمية كبيرة من الخمر ، وطلب نقودا ليشرب مزيدا من الخمر ولكن طلبه رفض . وبعد ما يقرب من ساعة عاد حاملا جعة وكعكا مملحا للبنات ، وقضوا جميعا الليلة معا يشربون ويغنون . وفي الصباح اكتشفن ان باب الطابق العلوى قد كسر وان هناك ثلاثة قمصان رجالي وفستانا وملاءتين قد سرقت من على حبل الملابس . وبابتسامة ساخرة سأل كوستيا كلا من المشاهدات على حدة اذا كانت قد شربت شيئا من الجعة التى احضرها المتهم ليلة الصليب المقدس . وكان من الواضح انه يحاول ان يثبت ان الغسالات هي اللاتي سرقن الملابس بأنفسهن ، ثم القى مرافعته دون اقل تعبير عن الانفعال ، وقد ثبت عينيه بصرامة على هيئة المحلفين طوال الوقت .

وشرح كوستيا الفرق بين السرقة بالاكراه وبين السرقة العادية . تحدث باهتمام وباستفاضة كبيرة ، مستعرضا موهبة ممتازة فى المناقشة بهيئة جادة فيما أصبح مسلما به منذ زمن بعيد . ومع ذلك فقد كان من الصعب ان تفهم فيم كل ذلك . وكانت النتيجة الوحيدة التى قد يخرج بها عضو المحلفين من خطبته انه قد حدث اكراه ولم تحدث سرقة ، ما دام الغسيل المسروق قد ذهب في شراء الجعة التي شربتها الغسالات ، وانه لو حدثت سرقة ، فانها تكون عندئذ بلا اكراه . ولكن من الواضح ان كل ذلك كما ينبغى ان يكون ، لان كلا من المحلفين والجمهور بدوا شديدى التاثر بخطبته ، وكان ذلك نجاحا كبيرا . وحينما عادت المحكمة الى الانعقاد واعلن الحكم بالبراءة ، هزت يوليا راسها لكوستيا ثم صافحته بحرارة بعد ذلك .



وفي مايو رحلت اسرة لابتيف الى منزلها الريفى فى سوكولينكى . حينذاك كانت يوليا قد اصبحت حاملا .

١٣

بعد مرور أكثر من عام ، كانت يوليا ويارتسيف جالسين على العشب في سوكولنيكي غير بعيد من خط سكة حديد ياروسلافل . وكان كوستيا ممددا على بعد أقدام قليلة منهما ، وقد أراح رأسه على ذراعيه وأخذ يحدق في السماء . كانوا جميعا قد أرهقهم المشي ، وهم ينتظرون الآن مرور قطار الساعة السادسة قبل أن يعودوا الى البيت لتناول الشاي .

وكانت يوليا تقول :

ـ « الأمهات يعتقدن دائما أن أطفالهن نابهون ، وهذا طبيعي تماما . انهن يستطعن الوقوف أمام مهد طفلهن بالساعات يحدقن في أذنيه الصغيرتين ، وعينيه وأنفه . والمسكينة منهن تعتقد أن تقبيل ابنها يهب كل شخص أعظم سعادة في الوجود ، ولا تستطيع أن تتحدث عن شيء آخر غير طفلها . أنا أعرف هذا الضعف في الأمهات وأحاول أن أراقب نفسي ، ولكن صغيرتي أولجا نابهة حقا . لها وجه صغير شديد الذكاء ، ما أروعها حين ترضع ! وما أجملها حين تضحك ان عمرها ثمانية أشهر فقط ومع ذلك فلم أر حتى الآن طفلا في الثالثة له مثل عينيها الذكيتين » .

وسألها يارتسيف :

ـ « بالمناسبة خبريني ، من تحبين أكثر ، زوجك أو طفلتك ؟ » .

ـ وهزت يوليا كتفيها بلا مبالاة وقالت :

ـ « لا اعلم . لم يحدث في يوم من الأيام اني احببت زوجي كثيرا . الواقع ان اولجا هي حبي الأول . انت تعلم اني لم اكن احب الكسي حين تزوجته . كنت شديدة الحمق وقتئذ ، وقاسيت الكثير لأني اعتقدت اني دمرت حياته وحياتي ، ولكني الآن فهمت أن الحب ليس مهما الى هذا الحد ، انه عبث كله .

ـ ولكن ما الذي يربطك بزوجك اذا كنت لا تحبينه ؟ لماذا تعيشين معه ؟

ـ لا اعلم .. العادة ، على ما أعتقد . اني احترمه ، وافتقده حين يغيب كثيرا ولكن هذا ليس الحب . انه رجل ذكي ، وشريف ، وفي هذا ما يكفي كي اشعر بالسعادة . وهو طيب جدا ، وكريم .. » .

وتلعثمت الكلمات في فم كوستيا وهو ينهض من رقدته بكسل :

ـ « الكسي ذكي ، الكسي طيب ، ولكن يا فتاتي العزيزة يجب ان يبتلع الانسان ثلاثة ارطال من الملح معه حتى يكتشف الى اى حد هو ذكي وطيب ومهم . وبالاضافة الى ذلك ، ما فائدة طيبته وذكائه ؟ انه يعطيك نقودا كما تريدين ، هذا يستطيعه ، ولكن حينما يتطلب الأمر شيئا من الحزم ، حين يتعلق الامر بالتعامل مع المجرمين والأوباش اذا به يدخل قوقعته . ان الرجال من امثال زوجك الكسي قوم رائعون ، ولكنهم لا يساوون شيئا كمقاتلين . وهم بصفة عامة ليسوا ممتازين في اى شيء » .

واخيرا ظهر القطار .. واندفع بخار قرمزي من المدخنة انتشر فوق الغابات ، وبدت نافذتان في العربة الأخيرة شديدتا التوهج تحت اشعة الشمس بحيث تغشى العين من النظر اليهما .

وقالت يوليا وهي تنهض :

ـ « موعد الشاي ! » .

كان جسمها قد امتلأ في الفترة الأخيرة ، واصبحت تسير في

شيء من التراخي الخفيف شأن المرأة الناضجة .

وقال بارتسيف وهو يسير خلفها :

ــ « نفس الشيء ، الحياة سيئة دون حب . اننا نتحدث كثيرا جدا ونقرأ كثيرا جدا عن الحب ، ولكن ما اقل ما نحب نحن انفسنا ، وهذا أمر سيىء » .

وقالت يوليا :

ــ « كل هذا كلام فارغ . والسعادة ليست هكذا » .

تناولوا الشاي في الحديقة الصغيرة حيث نمت ازهار الخزامى والطباق والخيري ، وحيث بدأ يزهر النرجس البري . واستطاع كل من بارتسيف وكوتشيقوأ ان يريا من وجه يوليا سيرجيفنا انهـا في حالة من الرضا السعيد ، وانها لا تتطلع الى شيء اكثر مما لديها ، واحسا ايضا وهما ينظران اليها بالوئام مع العالم . كل ما قيل كان ذكيا وفي صميم الموضوع . وكانت أشجار الصنوبر رائعة ، وعبير الراتينج أقوى من المعتاد ، وكانت القشدة ممتازة ، وساشا فتاة حلوة ..

بعد الشاي دخلوا الى المنزل ، وانشـد بارتسيف بعض اغاني الحب ، مصاحبا نفسه بالعزف على البيانو ، وبين الحين والآخر كانت يوليا تقوم وتخرج من الحجرة على أطراف اصـابعها لترى الطفلة و « ليدا » ، والأخيرة كانت طريحة الفراش مصابة بالحمى ولم تأكل شيئا منذ يومين ..

غنى بارتسيف :

ــ « يا حبي ، يا حبي الغالي » .

ثم أعلن وهو يهز رأسه :

ــ « لا يا اصدقائي ، قولوا ما تشاءون ، ولكني لا افهم لماذا تعترضون على الحب ! لو اني لم اكن مشغولا خمس عشرة ساعة

كل يوم لكان من المؤكد أن أحب » .

وقدم العشاء في الشرفة . وكانت ليلة دافئة هادئة ، ولكن يوليا تدثرت بوشاح صوفي واشتكت من الرطوبة . وحين حل الظلام ، بدأت تشعر بالقلق ، وظلت ترتجف ، وتحث ضيوفها على البقاء مدة أخرى . أمرت الخدم باحضار نبيذ ، وبعد العشاء كونياك . ولم تكن تريد أن تترك وحدها مع الخدم والأطفال وقالت :

ــ « أنا وجيراني نستعد لتقديم مسرحية للأطفال هنا في الريف لدينا كل ما نحتاج اليه ــ مسرح ، وممثلون ، كل ما ينقصنا هو المسرحية . وقد تلقينا حوالي عشر او عشرين مسرحية من كل نوع ، ولكن ليس من بينها واحدة مناسبة » .

ثم التفتت الى يارتسيف :

ــ « انت تحب المسرح ، وتعرف التاريخ معرفة جيدة ، فهل تستطيع ان تكتب لنا مسرحية تاريخية ؟

ــ لا مانع لدى .. » .

اتى الضيفان على الكونياك كله ، واستعدا للانصراف . وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة ، وهى ساعة متاخرة بالنسبة للريف .

وقالت يوليا وهى توصلهما حتى البوابة :

ــ « ما احلك الظلام ، أنا لا استطيع رؤية شيء ! لست ادرى كيف ستهتديان الى طريق العودة . يالله ، ان الجو بارد ! » .

شدت وشاحها اكثر حول جسدها ، ثم عادت الى البيت ، واتبعتها صوتها قائلة :

ــ « لابد ان الكسى يلعب الورق في مكان ما ، طابت ليلتكما ! » .

بعد الحجرات ساطعة الضوء ، لم يستطع يارتسيف وكوستيا ان يريا شيئا ، فاخذا يتحسسان طريقهما عشوائيا الى قضيب السكة الحديد واجتازاه .

وانفجر كوستيا قائلا وهو يتوقف ليحدق في السماء :

— « لا استطيع ان أرى اى شيء ، ولكن انظر الى النجوم ، انها اشبه بقطع جديدة لامعة من فئة الخمسة عشر كوبك ! » .

وجاء صوت بارتسيف من وسط الحلكة قائلا :

— « ماذا ؟

— اقول ان الظلام حالك . اين انت ؟ » .

تقدم بارتسيف وهو يصفر ، وجذبه من ذراعه . وفجأة زأر كوستيا بأعلى صوته :

— « هاي ، انتم أيها القوم الطيبون ، لقد قبضوا على أحد الاشتراكيين ! » .

كان دائما شديد الضجيج كلما احتسى شيئا من الخمر ، فيصيح كثيرا ، ويفتعل المشاجرات مع رجال البوليس وسائقى العربات ، ويغني ويهدر بالضحك . وعاد يزأر :

— « الطبيعة ، فليأخذك الشيطان ! » .

واعترض بارتسيف :

— « وماذا بعد ذلك . كف عن هذا بالله عليك » .

ومالبثت عيونهما ان الفت الظلمة ، وبدات اشباح اشجار الصنوبر واعمدة التلغراف تتميز أمامهما .. وبين الحين والآخر كانت قاطرة تصفر فى افنية محطة موسكو ، وأخذ التلغراف يطن بوضوح . ولكن صوتا واحدا لم ينبعث من الغابات ، وكان ثمة شيء معتز قوى ومبهم يحيط بذلك الصمت ، وبدت أطراف الصنوبر وكأنهـا تمس أطراف السماء . وعثر الصديقان على طريقهما وسارا فيه . كان الظلام هنا شاملا ، ولولا شريط السماء الرفيع المرصع بالنجوم وملمس الأرض الرطبة تحت اقدامهما لما استطاعا أن يعرفا انهما فى الطريق الصحيح . سارا جنبا الى جنبه دون حديث ، وخيل

اليهما أن لمة شخصا يتجه نحوهما في الظلام . وبدا تأثير الخمر يتلاشى . وخطر لبارتسيف ان هذه الغابات ربما كانت مسكونة بارواح قياصرة موسكو ، وفرسان وبطاركة ، واراد ان يخبر كوستيا بذلك ولكنه عدل .

وحينما وصلا الى مداخل المدينة كانت اول اشعاعات النهار قد مست السماء . مرا أمام حوانيت الأطر الرخيصة ، والحانات ، وساحات الأخشاب ، وتحت جسر السكة الحديد حيث لفحتهما نسمة رطبة معطرة برائحة ازهار الليمون الجميلة ، ثم خرجا الى شارع طويل عريض مهجور تماما ومظلم .. وحينما وصلا الى « رديوند » كان النهار قد اشرق فعلا ..

وبينما هما يمران أمام دير الكبيفيسكى قال بارتسيف :

— « ما زال امام موسكو الكثير من الآلام ! » .

— ما الذى جعلك تفكر في ذلك ؟

— آه ، لا أدرى ، انا احب موسكو » .

لقد ولد كل من بارتسيف وكوستيا في موسكو ، واحباها وكانا لسبب ما متحيزين ضد المدن الأخرى . كانا مقتنعين بان موسكو مدينة عظيمة ، وبان روسيا بلاد عظيمة . وفي القرم ، او القوقاز ، او خارج البلاد ، كانا يشعران بالملل والضيق ، وكانا يعتقدان انه ليس هناك جو أصح ولا أمتع من جو موسكو القبض . فمثل هذه الأيام ، حين يطرق المطر البارد زجاج النوافذ ويهبط الغسق مبكرا ، وتصبح جدران البيوت والكنائس بنية داكنة ، ولا تعرف ماذا ترتدي حين تريد الخروج .. مثل هذه الايام كانت تبدو سارة في نظرهما .

واخيرا وصلا الى المحطة واستاجروا عربة ، وقال بارتسيف :

— « ماذا لو كتبت فصلا مسرحية تاريخية ولكن بدون آل ليابونوف

ولا آل جودونوف ، اعرف شيئا جديدا من فترة حكم ياروسلاف او مونوماخ . فانا ازدرى كل المسرحيات التاريخية الروسية باستثناء مونولوج « بيمين » . ان المصادر التاريخية ، وحتى كتب التاريخ الروسية تجعل كل شيء في روسيا يبدو موهوبا وساحرا بصورة غير عادية ، ولكنى حين ارى مسرحية تاريخية اجد الحياة الروسية تصدمنى بانها سخيفة وغير صحية ولا اثر فيها للاصالة » .

افترق الصديقان بالقرب من دميتروفكا واتجه بارتسيف بالعربة الى بيته فى شارع نيكيتسكايا . جلس ناعسا فى مقعده يتأرجح من جانب الى آخر ويفكر في المسرحية التي سيكتبها . وفجأة خيل اليه انه سمع ضجة مخيفة ، قرقعة درع وصيحات بلغة غريبة قد تكون لغة « كالموك » ، ورأى قرية يلفها اللهب ، والغابات المحيطة بها مغطاة بجليد ابيض اشد اكفهرارا من النار ، رآها واضحة حتى ان كل شجرة من اشجار الشربين الصغيرة كانت تقف وحدها منفصلة عن غيرها . واجتاح القرية رجال متوحشون على ظهور الخيول وراجلين ، وكان الرجال والخيول مكفهرين كالسماء .

وقال بارتسيف لنفسه :

ــ « البولوفتسى » .

كان احدهم عجوزا ذا وجه دموى مخيف ، وجســـــد مغطى بالحروق ، وكان يربط الى سرج حصانه فتاة شابة ذات وجه روسى ابيض . وكان العجوز يصرخ بوحشية والفتاة تحدق امامها بعيون حزينة متأملة .. ثم هز بارتسيف نفسه واستيقظ وترنم بأغنيته :

ــ « يا حبى ، يا حبى العزيز » .

ونقد سائق العربة ثم صار صاعدا الى شقته ، وان لم يستطع مع ذلك ان يبعد الحلم عن راسه ، فرأى اللهب ينتشر فوق القرية ، والغابة تدخن واشجارها تقرقع ، وثمة خنزير وحشى جن من الفزع

فاندفع الى القرية .. والفتاة المربوطة الى سرج الفرس ، تحدق الى الأمام .

حين دخل حجرته كان النهار قد انضام تماما . وكانت هنـــاك شمعتان تحترقان على المائدة بجوار نوتة موسيقية مفتوحة . وكانت راسودينا مرتدية ثوبها الأسود وقد اســـتغرقت في النوم فوق الأريكة وفي يدها جريدة . كان من الواضح انها ظلت تعزف مدة طويلة وهي تنتظره ، ثم راحت في النوم ، وقال لنفسه :

ــ « هذه المخلوقة المسكينة ، لابد أنها مرهقة » .

اخذ الجريدة من يدها برفق ، وغطاها بملاءة ، ثم نفخ الشمعتين وذهب الى حجرة نومه . ودخل في سريره وهو لا يزال يفكر في المسرحية التاريخية ، وظلت اغنية « يا حبي ، يا حبي العزيز » تتردد في أذنيه .



بعد يومين مر عليه لابتيف بضع دقائق ، ليخبره أن « ليدا » كانت مريضة بالدفتريا ، وان يوليا سرجيفنا والطفلة الصغيرة قـد أصيبتا بالعدوى منها ، وبعد خمسة أيام اخرى جاءت الاخبار بان « ليدا » ويوليا تتماثلان للشفاء ، ولكن الطفلة ماتت ، وان أسرة لابتيف أسرعت بالعودة الى المدينة .

لم يعد لابتيف الآن يحتمل البقاء فى المنزل أى فترة من الوقت . وكثيرا ما انسحبت زوجته الى الجانب الآخر من البيت بدعوى أن تعطى دروسا للفتاتين ، ولكنه كان يعلم انها تذهب الى هناك لتبكى فى حجرة كوستيا . وفى اليوم التاسع ، واليوم العشرين ، واليوم الاربعين بعد وفاة الطفلة كان عليهم ان يذهبوا الى مقابر الكسيفيمكى ليؤدوا صلوات الذكرى ، وتلت ذلك بالنسبة للابتيف أيام طويلة من الحداد والتفكير فى لا شىء سوى الطفلة المسكينة ، والتفوه بكل انواع العبارات المألوفة لمواساة زوجته . واصبح الآن لا يزور المخزن الا نادرا ، وتفرغ للاعمال الانسانية مخترعا مختلف انواع المشاغل لنفسه ، ومرحبا باى عذر ليقضى يوما بطوله فى العربة يؤدى بعض الأمور التافهة . وهو الآن ينوى السفر الى الخارج ليدرس تنظيم الفنادق هناك ، وقد سيطرت عليه الفكرة تماما فى الوقت الحاضر .

وذات يوم من أيام الخريف ، ذهبت يوليا الى الجانب الآخر من المنزل لتبكى ، وكان لابتيف ممددا على الاريكة فى حجرة مكتبه لا يدرى الى اين يذهب ، حين دخل « بيوتر » ليعلن مقدم « راسوديتا » . فقفز لابتيف فى سعادة وأسرع لمقابلة الزائرة غير المتوقعة . لم يكن يفكر ابدا هذه الايام فى عشيقته السابقة ، ووجدها تماما كما تركها فى تلك الليلة الأخيرة .

صاح وهو يمد يديه نحوها :

« بولينا ! مرت قرون منذ تقابلنا آخر مرة ! لا تستطيعين تصور مدى سعادتي برؤيتك ! تفضلي ! » .

هزت راسودينا يده وهي تحييه ، ثم دخلت الى حجرة المكتب دون أن تخلع قبعتها ولا معطفها ، وجلست ، ثم قالت :

— « لن أعطك أكثر من دقائق قليلة ، فليس لدى وقت للثرثرة معك . ارجو ان تتكرم بالجلوس والاستماع الى ما سأقوله . وسواء كنت سعيدا لرؤيتي أو لم تكن فهذه مسألة لا اهمية لها بالمرة فى نظرى ما دمت لا اعلق اى اهمية على الافضال التى يتكرم بها جنس الذكور . لقد جئت اليك فقط لأنى ذهبت بالفعل الى خمسة اماكن اخرى ، ورفض طلبى فى كل مكان ، والمسألة عاجلة ، استمع الى .. » .

وواصلت حديثها وهى تنظر اليه فى عينيه مباشرة :

— « هناك خمسة طلاب من معارفى ، قد يكونون حمقى ومبذرين، ولكنهم فقراء بلا جدال ، وقد عجزوا عن دفع رسوم تعليمهم ، وهم الآن على وشك ان يفصلوا . وثروتك تسمح بأن يعتمد عليك فى ان تذهب الى الجامعة وتدفع لهم .

— بكل سرور يا بولينا .

— « هاك أسماؤهم » .

قالت راسودينا ذلك ، وقدمت له قصاصة من الورق :

— « اذهب فى الحال ، وتستطيع ان تستمتع بسعادتك المنزلية فيما بعد » .

فى تلك اللحظة سمعا حفيفا خلف الباب المؤدى الى حجرة الاستقبال — لعله كلب يهرش . فاحمر وجه راسودينا وقفزت واقفة وهى تقول :

— « زوجتك تسترق السمع . يا للوضاعة ! » .

احس لابتيف بلذعة الم لهذه الاهانة الموجهة لبوليا ، فقال :

— « انها ليست هنا ، بل هي في الجـانب الآخر من البيت . وارجوك لا تتكلمى عنها بهذه الطريقة . لقد ماتت طفلتنا اخيرا وهي في غاية الارتباك » .

وقالت راسودينا بلهجة لاذعة وهى تعود الى مقعدها :

— « تستطيع أن تواسيها ، فسوف ترزق بعشرة اطفال آخرين . فلا شك أن الانسان لا يحتاج الى شيء من الذكاء لينجب الأطفال » .

تذكر لابتيف انه سمع شيئا كهذا مرات عديدة منذ زمن بعيد وجرفته للحظة ذكريات الأيام الماضية الحلوة ، أيام العزوبية الحرة حين كان يحس انه شاب وانه ليس هناك شيء لا يستطيع عمله ، وحينما لم يكن هناك حب لزوجته ، ولا ذكريات عن طفلته . وقال وهو يتمطى :

— « هيا بنا معا » .



انتظرت راسودينا خارج الجـامعة ، في حين ذهب هو الى الادارة .

وحين عاد سأل وهو يسلمها الايصالات الخمسة :

— « الى أين انت ذاهبة الآن ؟

— الى بيت ياركسيف ..

— سأذهب معك ..

— « انه يعمل ، وسوف ترعجه لا اكثر .. » .

فقال وهو ينظر اليها متوسلا :

— « لا ، لن افعل ، اعدك بذلك ! » .

كانت ترتدى قبعة سوداء يحيط بها اطار من الحرير وكأنها في

حداد ، وسترة قصيرة جدا وباهتة ذات جيوب واسعة . وبدا انفها اطول منه في اي وقت آخر ، وكان وجهها خاليا من كل لون بالرغم من الصقيع .

وجد لابتيف متعة في السير خلفها بوداعة ، مطيعا لها منصتا لتذمراتها . واصل مسيره وهو يعجب من القوة الداخلية لهذه المراة ، فهي بالرغم من انها ليست جميلة ، وبالرغم من ذبولها واضطرابها ، وبالرغم من ملابسها غير المقبولة ، وشعرها المشعث ، ومظهرها الفظ ، فلها مع ذلك سحر خاص .

دخلا مسكن ياوتسيف من الباب الخلفي المؤدي الى المطبخ حيث قابلتهما الطاهية ، وهي امراة عجوز ضئيلة الحجم نظيفة المظهر ذات خصلات رمادية ، بدا عليها الانزعاج الشديد ، وان قالت بابتسامة لزجة جعلت وجهها الصغير يبدو كانه فطيرة :

ــ « تفضلا من هنا » .

لم يكن ياوتسيف في البيت . وجلست راسودينا امام المعزف وبدات سلسلة لا تنتهي من التمرينات الجافة الشاقة ، بعد أن امرت لابتيف بالا يعطلها . ولم يحاول أن يكلمها ، بل جلس في ركن يتصفح جريدة « الهيرالد الاوروبية » . وبعد أن تدربت ساعتين ــ وهما حصتها اليومية ــ تناولت وجبة سريعة في المطبخ ثم خرجت لاعطاء دروسها .

وقرأ لابتيف تكملة احدى الروايات ، ثم جلس وقتا طويلا لا يقرأ ، ولا يشعر بالملل ، بل كان سعيدا لان الوقت قد اصبح متأخرا بالفعل للعودة الى بيته للغداء .

سمع صوت ياوتسيف العالي في الردهة :

ــ « هو ! هو ! هو ! » .

ثم دخل وقد بدت عليه معالم الصحة الجيدة والنشاط ، كان

احمر الخدين يرتدي سترة فراك جديدة ذات ازوار لامعة ، وقال :

ـ « هو ! هو ! هو » .

تناول الصديقان غداءهما معا . وبعد الغداء تمدد لابتيف على الاريكة في حين جلس يارتسيف بجواره واشعل سيجارة . وكان الغسق قد حل . فقال لابتيف :

ـ « لابد انني تقدمت في السن كثيرا ، فمنذ توفيت شقيقتي نينا اجدني كثير التفكير في الموت » .

تحدثا عن الموت ، وعن خلود الروح ، وكيف انه يكون امرا بديعا لو عاد الانسان الى الحياة حقا وطار الى المريخ او الى مكان ما حيث يستطيع ان يعيش سعيدا بلا عمل الى الأبد ، وبالاضافة الى ذلك يستطيع ان يكون حرا ليحيا حياة الروح . وقال يارتسيف برقة :

ـ « ومع ذلك ، فانا لا أريد ان اموت ، وليست هناك فلسفة يمكن ان تعزيني عن فكرة الموت . فانا أعتبره نهاية كل شيء ، وأريد ان أعيش .

ـ هل تحب حياتك ؟

ـ نعم ، أحبها .

ـ اما بالنسبة الي ، فانا لا استطيع فهم نفسي ابدا . أجدني دائما ممزقا بين اليأس المظلم وعدم الاكتراث التام . انا خجول ، لا ثقة لي بنفسي ، ضميري جبان ، وانا عاجز تماما عن التكيف مع الحياة لأصبح سيد مصيري . الرجال الآخرون يقولون كلاما فارغا ، أو يخدع كل منهم الآخر ، ويجدون متعة في ذلك ، في حين لا اجدني الا مضطرا أو غير مكترث ، حتى وأنا أحاول فعل الخير . أعتقد ان سبب ذلك اني عبد ، حفيد رجل من الرقيق . وكثيرون منا نحن الرعاع سيهلكون قبل ان يوفقوا الى تحرير انفسهم ! » .

وقال بارتسيف وهو يتنهد :

ـ « كل هذا جميل يا صديقي ، وهو يوضح مرة اخرى مدى خصوبة الحياة في روسيا وتنوعها . آه ، ما اشد خصوبتها ! ان اقتناعي ليزداد يوما بعد يوم بان اليوم الذى نعيشه الآن انما هو عشية انتصار عظيم ، واحب ان اعيش لاشارك في هذا الانتصار . صدق او لا تصدق ، ولكنى احس ان الجيل الذي ينمو الآن انما هو جيل عظيم . وحينما اعلم الأطفال ، والبنات منهم بصفة أخص، امتلىء سعادة . انهم اطفال رائعون ! » .

ذهب بارتسيف الى المعـــــزف وعزف عليه نغمة ، ثم استأنف حديثه :

ـ « انا كيميائي ، افكر باسلوب الكيمياء ، وسوف اموت وانا كيميائي ، ولكنى غير مستقر ، اخشى ان اموت قبل أن احصل على كفايتي ، فالكيمياء لا تكفيني ، ويجب أن ادرس تاريخ روسيا ، وتاريخ الفنون ، ونظريات التربية ، والموسيقى .. ذات مرة في الصيف الماضي اقترحت على زوجتك ان اكتب مسرحية تاريخية ، والآن اعتقــد انى استطيع ان اجلس للكتابة ثلاثة أيام بلياليهـــا بلا انقطـــــــاع ودون أن انهض . راسي مكتظ ، ممتلىء الى حافته بالأفكار ، حتى ليوشك أن ينفجـــر ، واستطيع أن احس بنبضه واختلاجه . انا لا اهدف الى ان أكون شيئا غير عادي ، ولا اتوقع ان اخلق احدى الروائع ، كل ما اريده هو أن اعيش ، واحلم ، واتطلع ، ولا يفوتني شيء .. الحياة ، يا صديقي العزيز ، قصيرة جدا ، ويجب أن نستغلها باقصى ما نستطيع » .

بعد هذا الحديث الودى الذى استمر حتى ساعة متأخرة من الليل ، بدأ لابتيف يزور بارتسيف كل يوم تقريبا . كان يحضر عادة قرب المساء ، ويتمدد على الأريكة ينتظر مجيء بارتسيف ، وبعد

العشاء ، كان بارتسيف يجلس العمل ، ولكن بعد قليل يسأله لابتيف سؤالا . فيبدأ محادثة ، وينسى بارتسيف العمل ، وعند منتصف الليل يفترق الصديقان ، وقد شعر كل منهما بمزيد من السرور نحو الآخر .

ولكن ذلك لم يستمر طويلا . فذات مرة ، حين جاء لابتيف وجد « راسودينا » جالسة الى المعزف تعزف تدريباتها . ولم تقدم له يدها ، وقالت له وهى تنظر اليه نظرات تكاد تكون عدائية :

— « هل تتكرم وتخبرنى متى سينتهى ذلك ؟ » .

وسألها لابتيف مذهولا ؟

— « ماذا تقصدين ؟ » .

— انك تأتى الى هنـــا كل يوم وتعطل بارتسيف عن عمله . وبارتسيف ليس تاجرا ، انه عالم وكل دقيقة فى حياته ثمينة كان يجب أن تفهم هذا وتتزود ولو بقدر ضئيل من حسن التقدير » .

اخذ لابتيف وقال بخجل :

— « اذا كنت تعتقدين انى اعطله حقا ، فسأكف عن المجىء .

— رائع . والآن أذهب ، والا جاء ووجدك هنا » .

وازعجته الى أبعد حد النغمة التى قالت بها هذا ونظرة عدم الاكتراث فى عينيها ، اذ وضح له انها لم يعد فى نفسها اقل احساس نحوه . وكان كل ما تريده هو ان يذهب . لشد ما يختلف الأمر الآن عما كان عليه من قبل !

خرج دون أن يصافحها ، متوقعا أن تناديه ليعود ، ولكنها استأنفت على الفور عزف تدريباتها الموسيقية ، وبينما كان يهبط الدرج ببطء شعر أنه قد أصبح بالفعل غريبا بالنسبة اليها .

بعد ثلاثة أيام جاء بارتسيف ليقضى المساء عنده . وقال وهو يضحك ضحكة قصيرة :

— « لدى اخبار لك . لقد جاءت بولينا نيكولايفنا لتعيش معى » .

وبدا مرتبكا بعض الشيء وهو يواصل حديثه بصوت أشد انخفاضا :

— « في الحقيقة . من المؤكد اننا لا يحب احدنا الآخر ، ولكنى لا اعتقد ان هذا يهم حقا . انا سعيد لانى استطيع ان اقدم لها ماوى ، وامكنها من الا تضطر للعمل اذا مرضت . وهى تعتقد ان حياتى ستصبح اكثر نظاما لو عاشت معى ، وانى بتاثيرها ساصبح عالما عظيما . هذا ما تظنه .

فلتستمر فى هذا الظن . « فالأحمق غنى بظنونه » . كما يقول اهل الجنوب فى امثالهم . هو ! هو ! » .

لم يقل لابتيف شيئا . وبدا يارتسيف يذرع الحجرة ، ويتوقف ليحدق فى اللوحات التى رآها مرات كثيرة من قبل ثم قال وهو يتنهد :

— « نعم ، يا صديقى ، فانا اكبر منك بثلاث سنوات ، وقد فات بالفعل الوقت الذى يمكن ان افكر فيه فى حب حقيقى . والواقع ان امراة مثل بولينا نيكولايفنا تعتبر هدية من السماء بالنسبة الى ، ولا شك انى ساعيش معها فى سلام حتى مرحلة متاخرة من العمر ، ولكنى مع ذلك لا املك مقاومة الاحساس بانى حرمت من شيء ، وما زلت احن الى شيء ، واظل اتصور نفسى « مستلقيا فى وادى بداغستان احلم بحفلة راقصة كبرى » ، او بكلمات اخرى ، الانسان لا يقنع ابدا بما لديه » .

ثم دخل الى حجرة الاستقبال وغنى بعض اغانى الحب تماما وكان شيئا لم يحدث ، فى حين جلس لابتيف فى حجرة مكتبه وقد اغلق عينيه واخذ يحاول ان يفهم لماذا ذهبت راسودينا لتعيش مع

بارلسميف . واحزنه ان يعتقد انه لا وجود لشيء مثل علاقة ثابتة مستمرة ، وغضبه على بولينا نيكولايفنا لأنها ذهبت الى بارلسيف ، وغضب على نفسه لأنه لم يعد يحب زوجته كما كان يحبها ذات يوم .

— ١٥ —

جلس لابتيف يقرأ في مقعده الكبير ذي اليدين ، واخذ يتارجح من جانب الى آخر وقد شغله التفكير . وكانت يوليـــا تقرأ هي الأخرى . منذ الصباح لم يتبادلا كلمة واحدة ، اذ بدا انه ليس هناك ما يتحدثان عنه . وقال لابتيف لنفسه وهو يحدجها بنظراته من فوق كتابه بين الحين والآخر :

« ما الفرق بين ان يتزوج الانسان عن حب وبين أن يتزوج بدون حب ؟ » .

كم تبدو الآن بعيدة تلك الأيام التي كان يغار فيها ، تلك الأيام التي عرف فيها القلق والعذاب ! منذ ذلك الحين وهو بالخارج ، وها هو ذا يستريح من رحلته ، لقد اعجبته انجلترا ، وقرر أن يعود اليها في الربيع .

وكانت يوليا سيرجيفنا قد اعتادت حزنها الآن ، ولم تعد تنسحب بعيدا لتبكي . وفي ذلك الشتاء لم تطف ببيوت الأزياء ولم تذهب كذلك للمســارح ولا الحفلات الموسيقية . ولما كانت لا تحب الحجرات الكبيرة ، فقد كانت تمضي وقتهـــا اما في مكتب زوجها واما في حجرتها حيث تحتفظ بالأيقـــونات التي كانت جزءا من بائنتها ، والمنظر الطبيعي الذي اعجبها في المعرض . وقلما كانت تصرف نقودا على نفسها — لم ترد على المبلغ الذي كانت تصرفه حينما كانت تعيش مع أبيها .

كان شتاء مملا الى أبعد حد . كل من فى موسكو لعبوا الورق خلال هذا الفصل ، وحتى حينما كانوا يحـــاولون تسلية انفسهم بالغناء ، او القراءة ، او الرسم ، كانت النتيجة مزيدا من الملل . ولما كانت المواهب شحيحة جدا في موسكو ، ونفس المطـــــــــربين والخطباء يمارسون نشاطهم في كل مكان ، فقد ذبل الفن وتحول في نظر الكثيرين الى واجب ممل مرهق لا اكثر .

وفضلا عن ذلك ، فقـــد كان كل يوم يأتى لآل لابتيف بمتـــاعب جديدة . لقد ضعف نظر فيودور ستيبانيتش العجوز الى ابعـــد حد ، ولم يعد يذهب الى المخزن ، وتنبأ طبيبه بانه سرعان ما سيفقد البصر تماما . وكف فيودور كذلك عن الذهاب الى المخزن لسبب ما ، وكان يقضى كل وقته فى البيت ، يكتب . وبانوروف الذى نجح في نقل نفسه الى مدينة اخرى ورقى الى وظيفة مستشار دولة ، اصبح يعيش الآن فى فندق درسدن ، ويأتى كل يوم تقريبا الى لابتيف ليقترض نقودا . اما « كيش » فقد تخرج اخيرا فى الجامعة ، وهو ينتظر الآن ان يجد له لابتيف وظيفة مناسبة ، وفى هـــذه الأثناء يقضى فى بيتهم اياما بطولها يروى حكاياته التى لا تنتهى . كل ذلك اثار اعصاب لابتيف وأرهقه وجعل حياته تعسة الى أبعد حد .

دخل بيوتر الى حجرة المكتب ليعلن أن سيدة ترغب فى مقـــابلة سيده . وقـــدم للابتيف بطـــــــاقة زيارة كتب عليها : « جوزفينا ايوسيفوفنا . ميلانو » .

نهضت يوليا سيرجيفنا برشاقة وخرجت وهى تعرج عرجا خفيفا فى مشيتها من اثر تشنج فى قدمها . وظهرت عند الباب سيدة ترتدى السواد ، كانت نحيلة ، ذات حاجبين سوداوين بارزين فى وجهها الشاحب . وقالت وهى تضغط يديها على صدرها :

ـ « مسيو لابتيف ، انقذ طفلتى الصغيرتين ! » .

كان رنين الأساور ولطخ المساحيق مالوفين للابتيف ، انهـــا السيدة التى تغذى فى منزلهـــا دون داع قبيل زواجه مباشرة ـ زوجة بانوروف الثانية .

وعادت تكرر ووجهها يتقلص :

ـ « انقذ طفلتي الصغيرتين ! » .

وفجأة بدت عجوزا تستثير الشفقة واحمرت عيناها :

ـ « انت وحدك الذي تستطيع انقاذنا . لقد انفقت آخر ما معى من نقود لكى احضر الى هنا ، الى موسكو . ستموت طفلتاى من الجوع » .

وتقلصت بصورة توحي بانهـــا ستجثو على ركبتيها . فامسكها لابتيف من ذراعها بفزع ، وتمتم قائلا وهو يقودها الى احد المقاعد :

ـ « تفضلي بالجلوس ، اجلسى ارجوك » .

قالت :

ـ « ليس لدينا نقود حتى لشراء الخبز . سيسافر جريجورى نيكولايفيتش ليتسلم وظيفة جديدة ، ولكنه لا يريد ان ياخذني معه انا والطفلتين ، والنقود التي ترسلها الينا بكرمك الفائق ينفقها على نفسه ، فماذا نصنع ؟ آه يا لطفلتي المسكينتين التعيستين !

ـ اطمئني ارجوك . ساصدر امرى لموظفى بأن يرسلوا النقود لك شخصيا » .

كانت تبكي بصوت مرتفع ، ولكنها بدأت تهدأ الآن ، ولاحظ ان الدموع خلقت مجارى عميقة وسط المساحيق المتكاثفة على وجنتيها، وان لها شاربا .

ـ « مسيو لابتيف ما اشد كرمك ، ولكنني أرجوك أن تكون ملاكنا الحارس ، وراعينا المنقـذ ، فتقنع جريجورى نيكولايفيتش

بالا يهجرنا . قل له ان ياخذنى معه . فانا احبه ، احبه بجنون ، ولا عزاء لى سواه » .

اعطاها لايتيف مائة روبل ووعــــدها بأن يحادث بانوروف ، ثم اوصلها حتى الباب ، وهو يخشى طوال الوقت أن تنفجر فى البكاء او تجثو على ركبتيها مرة اخرى .

وبعد ان ذهبت جاء « كيش » ، ثم تلاه كوستيا ومعه آلة تصويره. لقد اغرم فى الفترة الأخيرة بالتصوير الفوتوغرافى ، وكان يصور جميع من فى المنزل عدة مرات كل يوم . وقد تسببت له هــذه الهواية الجديدة فى كثير من المتاعب ، بل وفقد بسببها قدرا غير قليل من وزنه .

وقبيل موعد تناول الشاى وصل فيودور . وبعد أن اتخذ لنفسه مقعــــدا مريحا فى حجرة المــكتب ، فتح كتابا وجلــس يحدق فيه طويلا ، وكان من الواضح انه لا يقرا شيئا . وظل يتريث وقتا طويلا فوق شايه حتى احمر وجهـــه . واحس لابتيف حزنا مؤلما لوجود فيودور ، حتى صمته كان مزعجا .

واخيرا قال فيودور :

ـ « تستطيع ان تهنىء روسيا لفوزها بصحفى جديد . الكسى لندع المزاح جانبا ، لقد كتبت مقالة ، او محاولة من محاولات القلم اذا شئت ، وقد احضرتها معى لأريها لك . اقراها ، فانت صديق طيب ، وقل لى ما رايك فيها . ولكن تذكر انى اريد رأيك الصريح » .

واخرج مفكرة من جيبه وقدمها لشقيقه .

كان عنوان المقالة : « الروح الروسية » ، وكانت مكتوبة بتلك اللغة المملة التى لا لون لها والتى يــستخدمهـــا عادة اولئك الذين لا يملكون اى قدر من الموهبــــة وان كانوا مغرورين مع ذلك فى اعماقهم ، والفكرة الرئيسية فى المقالة هى أن من حق المثقف الا

يؤمن بالغيبيات ، ولكنه يجب عليه أن يخفي عدم ايمانه لكيلا يقود الآخرين الى البلبلة ويزلزل ايمان الناس ، فبدون الايمان تنهار المثل العليا ، والمثالية هي المقدر لها ان تنقذ اوروبا وتهدى البشرية الى طريق الصواب .

وقال لابتيف :

ــ « ولكنك لم تقل ما الذي ستنقذ اوروبا منه » .

ــ « هذا واضح » .

وعاد لابتيف يقول وهو ينهض ويذرع الأرض :

ــ « لا شيء من هذا ابدا . وهدفك من كتابة المقالة غير واضح ايضا . على كل حال هذا شأنك انت » .

ــ اعتزم نشرها في كتيب صغير .

ــ « هذا شأنك » .

وظلا صامتين بضع دقائق . قال بعدها فيودور :

ــ « حقا ، ما اعمق حزني لانك انت وانا لا نشترك في نفس الآراء . آه يا الكسي ، الكسي يا اخي العزيز ! انت وانا روسيان ، نخشى الله ، وقلبانا كبيران ، فما قيمة كل هذه الافكار الالمانية واليهودية العفنة بالنسبة لنــا ! على كل حال ، انا وانت لسنا وضيعى الاصل بأي حال ، نحن عضوان في اسرة تجارية مرموقة » .

واعترض لابتيف وهو يحاول كبح جماح غضبه :

ــ « اي اسرة تجارية مرموقة ! أسرة مرموقة ! كان اصحاب الأرض يجلدون جدنا ، وكان كل موظف صغير حقير يبصق في وجهه . جدى جلد ابي ، وابي جلدك وجلدني . اسرتنا المرموقة ماذا ورث عنها كل منا ! اى اعصاب واي دماء تلك التي ورثناها ! لقد ظللت ما يقرب من ثلاث سنوات تثرثر في كل مكان كالمبشر ، وتتحدث بكل انواع السخف ، والا فالتلا قد كتبت هذا .. هذا الخبل

الحقير ! وماذا عنى انا ؟ انظر الى . . ليس لدى مرونة ، ولا شجاعة، ولا قوة شخصية ، اخاف من كل خطوة اخطوها وكان شخصا ما سيضربني ، وارتعد فرقا امام كل انواع الحقراء ، والحمقى ، والقذرين الذين يقلون عنى عقليا وروحيا ، اخاف من الكناسين في الشوارع ، ومن البوابين ، ومن رجال البوليس والخفراء ، اخاف من الجميع ، لانى خرجت من رحم امراة فزعة ، ولانى منذ طفولتى وانا ازجر وانهر وتساء معاملتي ! انت وانا نحسن صنعا اذا لم ننجب أطفالا ابدا . وابتهل الى الله ان تنتهى هذه الأسرة المرموقة بنا ! » .

دخلت يوليا سرجيفنا الحجرة وجلست الى المائدة وقالت :

ــ « هل كنتما تتناقشان حول شيء ما ؟ ارجو الا اكون قد قطعت حديثكما » .

واجاب فيودور :

ــ « لا ابدا ايتها الأخت الصغيرة . كنا نناقش مسالة مبدأ » .

ثم واصل حديثه وهو يلتفت نحو اخيه :

ــ « الآن انت تسيء الى الأسرة ، ومع ذلك فهذه الأسرة انشأت مشروعا تجاريا تقدر قيمته بالملايين . وهذا يساوى شيئا بلا شك .

ــ يا له من نجاح . مشروع تجارى تقدر قيمته بالملايين ! رجلا بلا اى ذكاء او مواهب خارقة تصادف ان اصبح صاحب متجر ، ثم اثرى وظل يبيع بضائعه يوما بعد الآخر دون اى نظام او هدف ، ودون ان يجهد نفسه في جمع الثروة ، بل ظل يبيع بطريقة آلية لا اكثر ، وجاءت النقود متدفقة دون ان يبذل اى جهد من جانبه . انه يقضى حياته كلها في العمل ويحبه لانه ببساطة يتيح له فرصة التحكم فى موظفيه وخداع زبائنه . وهو أحد رؤساء الكنيسة لانه هناك يستطيع أن يتحكم في الجوقة ، ويجعل افرادها ينفذون اوامره ،

وهو يرمي المدوسة لأنه يحب النفوذ الذي يتيحه له على غيره من الناس ، ومخزنكم ليس مشروعا تجاريا ولكنه سجن مظلم ! نعم ، ففي ذلك الطراز من أعمالكم لا تحتاجون الا الى موظفين مذعورين ، وهذا النوع تدربونه عن طريق الاجبار منذ الطفولة المبكرة على ان ينحني أمامكم من أجل كسرة الخبز ، ومنذ الطفولة تعلمونهم أن ينظروا اليكم باعتباركم أصحاب الفضل عليهم . ولا يمكن أن تعينوا خريجا في الجامعة في مخزنكم ، لا يمكن أن تفعلوا ذلك ! » .

— « خريجو الجامعة لا يناسبون عملنا » .

وصرخ لابتيف :

— « هذا غير صحيح : هذا كذب ! » .

وقال فيودور وهو ينهض :

— « أرجو المعذرة ، ولكن يبدو أنك بدأت تلوث عشك ، انت تحتقر عملنا ومع ذلك فحياتك قائمة على أرباحه » .

وقال لابتيف وهو يصدر ضحكة جافة والشرر يتطاير من عينيه :

— « اها ! هذا هو مربط الفرس . نعم ، فلو أني لا انتمي الى اسرتكم المرموقة ، ولو كان لدي مقدار كوبك واحد من العزيمة والشجاعة لأطحت بهذا الدخل منذ زمن بعيد وذهبت لأكسب حياتي بنفسي . ولكنكم في مخزنكم هذا سلبتموني العزيمة والشجاعة ! أنا أنتمي اليكم » .

نظر فيودور الى ساعته ثم اسرع بالاستئذان . وقبل يد يوليا ثم خرج . وبدلا من أن يذهب الى الردهة ، ذهب الى حجرة الاستقبال ، ومنها الى حجرة النوم .

وقال يائسا :

— « لقد تهت . يا له من منزل غريب . أو ليس منزلا غريبا فعلا ؟ » .

وبدا ملعولا وهو يرتدي معطفه ، وعلى وجهه كانت نظرة عذاب . انفثأ غضب لابتيف ، وانتابه الآن فزع وفى نفس الوقت اشفاق على فيودور ، وشعر بذلك الحب الدافيء الأصيل نحو شقيقه يستيقظ فى صدره ، وكان يظنه قد مات خلال السنوات الثلاث الماضية ، واحس فى نفسه رغبـــة جارفة فى أن يعبر عن ذلك الحب باى طريقة ، فقال وهو يربت على كتف شقيقه :

ـ « فيودور يجب أن تأتي لتتغدى معنا غدا . هل ستأتى ؟

ـ نعم ، نعم . ولكن اعطنى كوبا من الماء ، أرجوك » .

وجرى لابتيف الى حجرة الطعام ، وامسك بأول شيء عثر عليه وكان كأس جعة طويلا ، وملأه بالماء واحضره لشقيقه . عب فيودور الماء عبا ، ولكنه فجاة عض حافة الكأس ، وسمع صوت طحن ثم نحيب . وسقط الماء على معطفه وعباءته . ولم يكن لابتيف قد شهد رجلا يبكي من قبل ، فوقف ملعورا مرتبكا ، فى حين اخذت يوليا والخادمة معطف فيودور وقادتاه عائدتين به الى حجرة الاستقبال ، وتبعهما وقد ملأه احساس بالذنب .

جعلت يوليا « فيودور » يتمدد على الاريكة ، وجثت على ركبتيها الى جواره ، وقالت مواسية :

ـ « لا شيء أبدا . مجرد ارهاق عصبى .. » .

فقــال :

ـ « أنا يائس ، انا شديد التعاسة .. ولكنى ظللت اخفى ذلك طوال الوقت ! » .

ووضع ذراعه حول عنقها وهمس فى اذنها :

ـ « انا احلم كل ليلة بشقيقتى نينا . تأتى وتجلس على المقعد الوثير المجاور لسريرى .. » .

وبعد ساعة كان يرتدى معطفه فى الردهة مرة أخرى ، وكان

الآن يبتسم ، ويحس بالخجل من الخادمة . واوصله لابتيف الى البيت . وقال وهما فى الطـــــريق الى بيت فيودور فى شارع بيانيتسكايا :

— « يجب ان تحضر للغداء غدا . وفي عيد الفصح سنسـافر الى الخارج معا . انت بحاجة الى التغيير فقد ارهقت كثيرا ..

— نعم ، نعم . ساذهب ، ساذهب .. وسناخذ الأخت الصغيرة معنا » .

وحين عاد لابتيف الى البيت ، وجد زوجته فى حالة اضطراب عصبى — فقد هزها انهيار فيودور بعنف . لم تكن تبكى ولكنها كانت شديدة الشحوب ، وكانت تتقلب في السرير وتنشب أصابعها المثلجة في الملاءة والوسادة ويدى زوجها . كانت عيناها متسعتين ومذعورتين توسلت قائلة :

— « لا تتركني ، لا تتركني . اخبرني يا الكسى لماذا كففت عن الصلاة ؟ ما اصاب ايماني ؟ آه ، لماذا تحدثت عن الدين كثيرا أمامي ! لقد اربكت عقلى ، أنت واصدقاؤك . فلم اعد أصلى » .

استعان بالكمادات الباردة على جبهتها ، واخذ يدفيء يديها ، وقدم لها شايا لتشربه ، ولكنها ظلت متشبثة به فى فزع .

وقرب الصباح استغرقت فى نوم مجهد ، وظـل لابتيف جالسا بجوارها ممسكا بيدها ، ولم يذهب الى الفراش فى تلك الليلة ، وظل طوال اليوم التالى يشعر بالارهاق فى عقله وجسده ، وظل يتجول في المنزل بلا هدف ، مشلول الفكر .

قال الأطباء ان فيودور مضطرب عقليا . ولم يكن لابتيف ليعرف شئيا عما يدور في بياتنيتسكايا ، وبدا المخزن الكئيب في نظـره كالمقبرة دون العجوز وفيودور . وحين كانت زوجته تقول له انه يجب أن يزور المخزن والبيت في بياتنيتسكايا كل يوم ، كان لا يجيب أو يشرع في الحديث باضطراب عن طفولته ، قائلا انه لا يستطيع ان يعفو عن ابيه بسبب الماضي ، وان كلا من بيتنيتسكايا والمخزن كريه في نظره .. وهكذا .

وفي صباح يوم أحد ذهبت يوليا الى بياتنيتسكايا بنفسها ، فوجدت فيودور ستبانيتش العجوز في نفس حجرة الاستقبال التى أقيمت فيها صلوات الكنيسة بمناسبة وصولها . وكان يرتدى سترة من الكتان الخشن دون رباط عنق ، ويجلس بلا حراك في مقعد كبير ويطرف بعينيه الضريرتين .

قالت وهى تتقدم نحوه :

ـ « انا زوجة ابنك ، جئت لأراك » .

بدا يتنفس بصعوبة . وانفعلت بحزنها ووحدتها فقبلت يده ، وتحسس وجهها ورأسها ، كأنما ليتأكد انها هى ، ثم رسم علامة الصليب فوقها وقال :

ـ « شكرا لك ، شكرا لك ، لقد فقدت بصرى كما تعلمين ، ولم اعد ارى .. استطيع أن أميز بغير وضوح النافـذة والنار ، اما

الناس والأشياء فلا أستطيع رؤيتها .. نعم ، سوف أصبح أعمى . وفيودور مريض وليس هناك من يراقب الأشياء . من سيعاقب المذنب اذا وقع خطأ ما . سيخرج العمال من أيدينا تماما . ماذا حدث لفيودور ؟ هل أصيب ببرد ؟ أنا لم أمرض طوال حياتي ولم أتعاط أدوية أبدا . ولم يكن لي أي صلة بالأطباء » .

وكالعادة دائما بدأ العجوز يفخر بنفسه . وفي هذه الأثناء أسرعت الخادمة باعداد المائدة ، ووضعت عليها أدوات الطعام والشراب . وظهر ما يقرب من عشر زجاجات ، من بينها واحدة تشبه برج ايفل . وقدم طبق كبير من الفطائر الساخنة تنبعث منها رائحة الأرز المقلي والأسماك .

وقال العجوز :

— « يجب أن تأكلي معي قليلا يا عزيزتي » .

امسكت بذراعه وقادته الى المائدة وصبت له شيئا من الفودكا ، ثم قالت :

— « سأحضر غدا مرة أخرى وأحضر معي حفيدتيك « ساشا » و « ليدا » سيسران برؤية جدهما .

— لا ، لا تحضريهما . انهما غير شرعيتين .

— لماذا تقول هذا ؟ لقد كان أبوهما وأمهما متزوجين .

— نعم ، ولكن دون موافقتي . لم أباركهما ولا أريد أن يكون لي شأن بهما . فليرحمهما الله » .

وقالت يوليا وهي تتنهد :

— « ما أغرب ما تقول يا فيودور ستبانيتش .

— يقول الانجيل ، يجب أن يحترم الأطفال آباءهم ويخشوهم .

— لا ، الانجيل لا يقول ذلك ، بل يقول اننا يجب أن نعفو عن أعدائنا .

— لا يمكن ان يكون هناك اى عفو فى مسالة كمسالتنا . ولو أنك بدات تعفين عن الجميع فسوف تفلسين فى بحر ثلاث سنوات .

— « ولكن ان تعفو ، وتقول كلمة طيبة حتى لمن اخطأ فى حقك اهم بكثير من العمل او الثروة » .

ارادت يوليا ان تلين قلب العجوز ، وتوقظ فيه الشفقة وتانيب الضمير ، ولكنه استمع الى كل ما قالته كما يستمع الكبار الى ثرثرة الاطفال .

وقالت يوليا بحزم :

— فيودور ستبانيتش ، لقد أصبحت عجوزا بالفعل ، وعما قريب سيستدعيك الله الى جواره ، وهو لن يسالك كيف ادرت عملك ، وعما اذا كانت تجارتك قد ازدهرت او لا ، ولكنه سيسالك هل كنت كريما مع اخيك الانسان أو لا ، وهل كنت قاسيا مع من هم اضعف منك ، مع خدمك وموظفى المبيعات مثلا .

— لقد كنت دائما محسنا على كل موظفي ، ويجب آن يظلوا شاكرين دائما ان كان لهم صاحب عمل مثلى » .

قال العجوز ذلك بايمان . ولكنه تاثر بالنبرة الملهفة فى حديث يوليا ، ولكى يبعث السرور فى نفسها اضاف :

— « حسن جدا ، تستطيعين أن تحضري الطفلتين غدا . وسآمر باحضار بعض الهدايا لهما » .

كان العجوز يرتدى ملابسه باهمـــال واضح ، وكان هناك رماد سيجار على صدره وركبتيه ، وكان من الواضح ان احدا لا يعبـــأ بتنظيف حذائه او تفريش ملابسه . وكان الارز فى الفطيرة سيىء الطهو ، ورائحة الصابون تنبعث من غطاء المائدة . والخادمة تدب بقدمها على الأرض . كان هناك جو عام من الاهمال للعجوز وللمنزل

يباتنيتيسكايا كله ، وشعرت يوليا بالخجل من نفسها ومن زوجها ، قالت :

ــ « ساحضر غدا دون تأخير » .

تجولت في الغرف ، وأمرت بترتيب سرير العجوز ، واشعال مصباح أيقونته . وكان فيودور جالسا في حجرته يحدق في كتاب مفتوح وكأنه يحدق في الفضاء . فتحدثت يوليا معه وأمرت بتنظيف حجرته . ثم ذهبت الى مساكن الموظفين . وكانت هناك دعامة من الخشب في المطلى ترفع السقف في وسط الحجرة التي يتناول فيها الموظفون طعامهم ، وكانت الجدران مغطاة بورق حائط رخيص ، وثمة رائحة طبخ كريهة . وكان اليوم الأحد وجميع الموظفين بالمنزل جالسين على أسرتهم في انتظار الطعام . وحين دخلت يوليا قفزوا واقفين وأجابوا عن أسئلتها بخجل ، وهم ينظرون اليها بحزن وكأنهم سجناء .

قالت وهي ترفع يديها الى اعلى :

ــ « يا الله ، يا له من مكان كئيب ! أو لستم مزدحمين هنا ؟ » .

وقال ماكيتشيف :

ــ « ليس لدينا ما نشكو منه يا سيدتي . ونحن مدينون لك بالفضل العميم ، وندعو الله ان يباركك » .

وقال بوتشتكين بايجاز :

ــ « الاستجابة للحياة والطموح الشخصي » .

وسارع ماكيتشيف بالتوضيح قائلا :

ــ « نحن قوم متواضعون نعيش في مستوى مركزنا » .

تفقدت يوليا جناح الصبيان والمطبخ ، ووجهت بعض الأسئلة الى مديرة البيت ، ثم انصرفت ، وهي في شدة الضيق من كل ما رأت .

وحين عادت الى البيت قالت لزوجها :

ـ يجب أن ننتقل الى بياتنيتسكايا باسرع ما تستطيع ، ويجب أن تذهب الى المخزن كل يوم .

وظلا جالسين متجاورين في حجــرة المكتب مدة طويلة دون أن يتحدثان . كان قلبه مثقلا ، ولم يكن يريد الذهاب لا الى بياتنيتسكايا ولا الى المخزن ، ولكنه خمن ما يدور في ذهن زوجته ولم يجد في نفســه القوة على معارضتها . فقال وهو يربت على خدها :

ـ « أحس كأن حياتنا قد انتهت بالفعل واننا قد بدانا نوعا من الوجود الباهت القريب من العدم . حين سمعت أن فيودور مريض مرضـا ميئوسا منه بكيت . لقد امضينا طفولتنا وشبابنا معا ، وفي فترة كنت أحبه حبا شديدا ، والآن تحدث هذه المصيبة . فاحس اني انفصل عن الماضي الى الأبد . والآن حين تقولين اننا يجب أن ننتقل الى بياتنيتسكايا ، الى ذلك السجن ، يداخلني احساس بالا مستقبل لي ايضا » .

قام وسار الى النافذة . ثم قال وهو يحدق في الشارع .

ـ « نعم ، يجب أن يبعد الانسان والى الأبد كل فكرة السعادة . لا وجود لشيء كهذا . اني لم اعرفها ابدا ، واشك في امكان وجودها على الاطلاق . لقد سعدت مرة واحدة في حياتي : تلكالليلة التي جلست فيها تحت مظلتك » .

واستدار نحو زوجته وسالها :

ـ « اتذكرين المظلة التي تركتها عند شقيقتي نينا ؟ كنت احبك وقتها ، واذكر اني جلست تحت تلك المظلة طوال الليل وكنت في حالة من السعادة الكاملة » .

والى جوار دولاب الكتب كانت هناك خزانة من الخشب الثمين والبرونز يحتفظ فيها لابتيف بمجموعة من الأشياء غير النافعة ، من

بينها المظلة ، فاخرجها وقدمها لزوجته وهو يقول :

ـ « ها هي ذي » .

نظرت يوليا الى المظلة لحظة ، وتذكرتها وابتسمت في حزن ، ثم قالت :

ـ « نعم ، أتذكر الآن . كنت تمسـكها في يدك وانت تطلب يدي » .

وبينما هو يتهيأ لمغادرة الغرفة قالت :

ـ « ارجو ان تحاول العودة الى البيت مبكرا بعض الشيء . فأنا أشعر بالوحشة بدونك » .

وصعدت الى غرفتها وظلت تحدق في المظلة وقتا طويلا .

رغم ضخامة أعمـــال آل لابتيف وتشعبها فانهم لم يستخدموا محاسبا ، والدفاتر التي يحررها الـكاتب غير صالحة بالمرة . وكان وكيلا الاعمال الالماني والانجليزي اللذان يحضران كل يوم الى المخزن يناقشان شئون الســـياسة والدين مع الموظفين . وثمة زائر آخر منتظم ، وهو نبيل سكير ، انه مخلوق مريض يستثير الاشفاق ، وكان يقوم بترجمة المراسلات الأجنبية للمتجر ، وكان الموظفون يسمونه « العاطفى » ويضعون الملح فى شايه . وكانت المؤسسة كلها تبدو غاية فى السخف فى نظر لابتيف .

انه الآن يذهب الى المخزن كل يوم ، ويبذل قصارى جهده لتغيير الاوضاع : فمنع جلد الصبيان ، وغش الزبائن ، واستشاط غضبا حين راى الموظفين يقدمون بضائع قديمة لا تجد من يشتريها لزبون من الاقاليم على انها احدث ما فى السوق . ولكن رغم انه اصبح مسئولا عن المخزن الآن ، فلم يكن يعرف مقدار ثروته بالضبط ، ولا اذا ما كانت التجارة تزدهر أم لا ، ولا مقدار ما يتقاضاه كبار الموظفين . كان بوتشتكين وماكيتشيف يعتبرانه اصغر واقل خبرة من ان يطلعاه على اسرار المؤسسة ، وكانا يعقدان كل مساء اجتماعات طويلة هامسة مع السيد العجوز الاعمى .

وذات يوم فى أوائل يونيو ذهب لابتيف وبوتشتكين الى حـــانة بوبتوف ليتعشيا ويتحدثان في شئون العمل . كان بوتشتكين يعمل

مع آل لابتيف منذ كان في الثامنة من عمره . وكانوا يعتبرونه فردا من الأسرة ويثقون به ثقة كاملة وقبل ان يغادر المخزن كان ياخذ ايصالات اليوم من الخزانة ويحشو بها جيوبه . كان السيد في المخزن وفي البيت ، بل وفي الكنيسة أيضا ، حيث كان يؤدي واجبات شيخ الكنيسة بدلا من العجوز . ولوحشيته في معاملة الصبية اطلقوا عليه اسم « ماليوتا سكولاتوف » .

حين دخلا الحانة واستدعى الساقي وقال له :

ـ « أحضر لنا نصف الكنز واربعا وعشرين اذنة » .

وبعد تأخير قليل قدم لهما الساقي صينية عليها نصف زجاجة فودكا وعدة اطباق مصفوفة من الماكولات الباردة . فقال له بوتشكين :

ـ والآن يا رجلي ، علينا بطبق من النميمة والفضائح مع بعض البطاطس المهروسة » .

وبدا الارتباك على الساقي ، وكان على وشك أن يقول شيئا ، ولكن بوتشكين حدجه بنظرة وقال :

ـ « وبالاضافة الى ذلك ! » .

قدح الساقي زناد ذهنه بعض الوقت ، ثم ذهب للتشاور مع زملائه ، وفي النهاية حل اللغز واحضر طبقا من اللسان .

وبعد أن شربا كأسين وأكلا قليلا ، قال لابتيف :

ـ « هل صحيح أن تجارتنا بدأت في التدهور خلال الأعوام القليلة الماضية ؟

ـ لا .. غير صحيح بالمرة .

ـ ارجوك أخبرني بصراحة وشرف : ما مقدار المال الذي يدخل لنا ، وما راس المال الذي لدينا في الوقت الحاضر ؟ .. اننا لا نستطيع ان نستمر ونحن نتخبط . لقد رأيت حسابات المخزن منذ فترة

قريبة ، ولكن يحزنني أن اقول انى لا أصدقها ، فلسبب ما تعتقدون انه من الضرورى ان تبقونى جاهلا ، ولا تقولوا الحقيقة الا لابى . كانت هذه السياسة منذ كنت صبيا ، ولن تستطيع أن تستمر بدونها ولكن الآن حان الوقت لتركها . اوجوك كن صريحا معى . ما حالة حساباتنا ؟ » .

وبعد لحظات من التدبر اجاب بوتشتكين :

ــ الأمر كله يتوقف على حمى البيع بالاجل .

ــ « ماذا يقصد بحمى البيع بالآجل ؟ » .

ويدأ بوتشتــــــكين يشرح ، ولكن لابتيف لم يستطع أن يفهم ، وارسل يستدعى ماكيتشيف . وحضر الأخير على الفور ، وتناول شيئا من الطعام بعد ان طلب الغفران ، ثم اعلن فى صوته الغليظ الصاخب أن الموظفين يجب ان يقدموا صلوات الشكر لله آناء الليل واطراف النهار لأنه اتاح لهم أمثال هؤلاء السادة المحسنين .

وقال لابتيف :

ــ « هذا رائع ، ولكن اسمح لى الا اعتبر نفسى احد المحسنين اليكم .

ــ على كل انسان ان يتذكر من هو ويعرف مكانه . وانت ، بفضل من الله ، ابونا وراعينا ، ونحن عبيدك » .

وصرخ لابتيف غاضبا :

ــ « اسمع ، لقد تعبت وضقت ذرعا بــكل هذا ! هل تحب أن تكون انت راعى وتحيطنى علما بحالة تجارتنا . اذا لم تكفا عن معاملتى كطفل فسوف اغلق المخزن غدا . ان ابى اعمى ، واخى فى مصحة للأمراض العقلية ، وبنتا أختى قاصرتان ، وانا أكره التجارة من كل قلبى ، وسوف يسعدنى ان اتخلى عنها ، ولكن ليس هناك من يحل

محلي ، كمـــا تعلمان بنفسيكما . لذلك بالله عليكما اتركا هـذه السياسة الحمقاء التي تتبعانها » .

ذهب للاثنهم الى المخزن وبداوا يراجعون الحسابات . وفي المساء واصلوا حساباتهم في البيت ، بمساعدة العجوز . وكانت نغمـة صوته وهو يحيط ابنه باسرار مهنته توحي بانه لا يعمل بالتجارة بل بالسحر الأسود . وظهر ان الدخل السنوى زاد بمقدار العشر ، وان ثروة لابتيف من النقود السائلة والضمانات وحدها تصل الى ستة ملايين روبل .

كان الوقت بعد منتصف الليل حين خرج لابتيف ليستروح نسمة هواء ، وهو ما زال ماخوذا بهـــذه الارقام . وكانت ليلة قمرية حارة رطبة ، وكانت حوائط منازل موسكو البيضاء وابوابها المثقلة بالمزاليج ، والصمت والأشباح القائمة ، كانت كلها تشبه القلعة ، ولم يكن ينقصها سوى الحارس ببندقيته .

دخل لابتيف الحديقة الصغيرة وجلس على مقعد بالقـــرب من السور الذى يفصل فناءهم من فناء الجيران . كانت شجرة طائر الكرز مزهرة ، ولابتيف يذكر هذه الشجرة من ايام طفولته ، ما زالت بالضبط كما كانت في ذلك الحين ، بنفس تعقد جذعها ، ولم يزد طولها بوصة واحدة . كل ركن في الحـــديقة والفناء يستثير فيه ذكريات الماضي البعيد . الماضي كالحاضر ، تذكر كيف كنت تستطيع ان ترى من بين فروع الأشجار الفناء وقد أضاءه ضوء القمر . وفي تلك الأيام كذلك كانت الأشباح قائمة وغامضة ، وتمطى كلب وسط الفناء ، وتثاوبت نوافذ مسكن الموظفين لم فتحت . ولم يكن في كل ذلك ذكرى واحدة سعيدة .

سمع وقع اقدام خفيفة في الفناء المجاور ، وصوت رجل يهمس الى جوار السور :

كانت الاصوات قريبة جدا من المكان الذي جلس فيه لابتيف ، بحيث استطاع ان يسمع تردد انفاسهما . وتعانقا .

كان لابتيف واثقا بأن الملايين والتجارة التي يكرهها اشد الكرهية سوف تدمران حياته وتستعبدانه تماما ، ورأى نفسه وهو يتعود شيئا فشيئا على مكانته ، ويتخذ بالتدريج سمات مدير المؤسسة التجارية ، ثم يتقدم في السن والشيخوخة ، وفي النهاية يموت كما يموت غيره من الناس ممن لا قيمة لهم — يائسا حزينا ، وعبئا على كل من حوله . ولكن ما الذي يحول بينه وبين هجرة التجارة والابتعاد عن هذه الحديقة والفناء اللذين كرههما منذ طفولته ؟

واثارته الهمسات والقبـــــلات خلف السور . فسار الى وسط الفناء ، وفك القميص من حول عنقه ووقف يحدق في القمر . بعد دقيقة سيامر بفتح البوابة ويخرج من هذا الفناء ولا يعود ابدا . وقفز قلبه لفكرة الحرية ، وضحك بصوت مرتفع وهو يتخيل كيف يمكن ان تصبح الحياة مجيدة ، ورومانتيكية ، بل وربمـــا قدسية ايضا ..

ولكنه لم يتحرك من حيث كان يقف . وسأل نفسه :

« ما الذي يبقيني هنا ؟ » .

واحتقر نفسه وذلك الكلب الأسود المستلقي هناك على قطع الحجر بدلا من الجري في الحقول والغابات حيث يجد السعادة والحرية . من الواضح انه وذلك الكلب كانا عاجزين عن مغادرة هذا المكان لنفس الاسباب : لقد تحولت القيود والعبودية الى عادة



وفي ظهر اليوم التالي ، ذهب الى « بوتوفو » حيث يمضون الصيف ، وصحب معه ياوتسيف رغبة في الرفقة . ولم يكن قد رأى

زوجته منذ خمسة ايام . ركبا عربة من المحطة وظل بارتسيف طول الطريق يغنى اغنيات ويمتدح روعة الجو .

كان المنزل يتوسط حديقة واسعة ، وقد وجد يوليما تحت شجرة حور متشعبة عند بداية الشارع الرئيسي بالقرب من البوابة كانت ترتدى ثوبا صيفيا أنيقا لونه أصفر شاحب ومطرز بالدانتيلا ، وكانت ممسكة بمظلتها القديمة المألوفة . وتبادل بارتسيف معها التحيات ، ثم أسرع نحو البيت حيث كانت تنبعث اصوات «ساشا» و « ليدا » ، فى حين جلس لابتيف ليتحدث مع زوجته .

ــ « لماذا تغيبت كثيرا هكذا ، لقد ظلت جالسة هنا يوما بعد الآخر أترقب عودتك . فأنا أحس بوحشة شديدة بدونك ! » .

ونهضت ومسحت على شعره ، وهي تتفحص وجهه وكتفيه وقبعته ، ثم قالت :

ــ « أتعلم انى أحبك » .

واحمر وجهها وهي تضيف :

ــ « انت عزيز على جدا . والآن قد جئت ، أراك واجدني سعيدة للغاية . فلنثرثر قليلا . قل لى شيئا » .

بينما كان ينصت لاعلانها حبها له ، احس وكأنهما متزوجان منذ عشرة أعوام ، ورغب فى تناول غدائه .

القت بذراعيها حول رقبته ، فداعب حرير ثوبها خده ، تخلص منهـا برفق ، ونهض ومضى في الممر المؤدي الى البيت . وجرت الفتاتان الصغيرتان لملاقاته .

قال لنفسه :

ــ « لكم كبرتا ! وما أكثر التغييرات الهائلة التى حدثت خلال هذه السنوات الثلاث . تصور أن الانسان قد يعيش ثلاث عشرة

سنة اخرى ، او ربما ثلاثين . ومن يستطيع ان يعلم ماذا يمكن ان يحدث وقتئذ . حسنا ، ليس بوسعنا الا ان ننتظر ونرى » .

ضم اليه ساشا وليدا اللتين تعلقتا برقبته . وقال :

ــ « جدكما يرسل اليكما حبه . والخال فيودور يموت . وصلني خطاب من العم كوستيا في أمريكا ، وهو يرسل اليكما تحياته . وقد كتب يقول انه مل المعارض وسوف يعود قريبا . والخال السكمى جائع » .

جلس بعد ذلك في الشرفة ورأى زوجته قادمة في الممر تسير ببطء في اتجاه البيت . وبدت غارقة في التفكير ، وبدا وجهها حزينا ساحرا ، وعيناها تفيضان بالدمع . لم تعد الآن فتاة نحيلة رقيقة شاحبة الوجه ، بل أصبحت سيدة ناضجة قوية وفاتنة . لقد لاحظ لابتيف تأثير جمال زوجته الجديدة على وجه يارتسيف المتأمل المشوق وهو يذهب للقائهما ــ فكأنه يراها الآن لأول مرة في حياته . وبينما كانوا يتناولون الغداء في الشرفة ، ارتسمت على شفتي يارتسيف ابتسامة سعيدة حية وهو جالس يحدق في انثناءة جيدها الرائعة . ولم يستطع لابتيف الا أن يراقبه ، وهو يفكر في ذات الوقت في السنوات الثلاث عشرة أو ربما الثلاثين التي لعلها ما زالت امامه . اشياء كثيرة جدا يمكن ان تحدث خلال هذه المدة . ومن يعلم ماذا يحمل المستقبل ؟

وقال لنفسه :

« سننتظر ونرى » .

« تمت »

اشترك في روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة : السيد / هاشم علي نحاس
جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٣
المملكة العربية السعودية

البرازيل : M. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Maroc. 991
Caixa Postal 7406.
Sao Paulo, BRASIL

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكر الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر فبراير 2020 **
www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

Exclusive
For
www.ibtesama.com